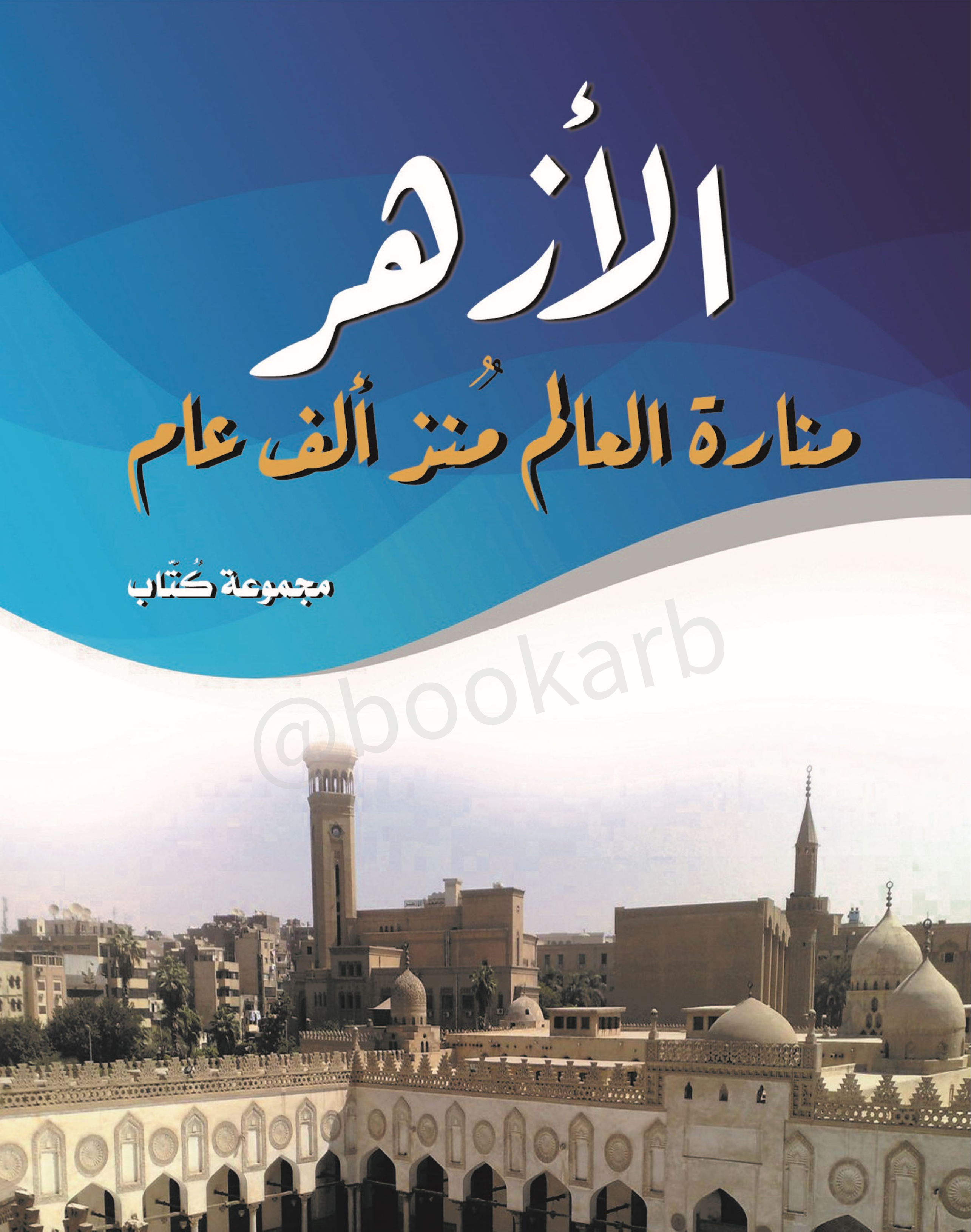

الأزهر
منارة العالم منذ ألف عام
مجموعة كُتّاب

الأَزهــر

منارة العالم مُنذ ألف عام

مجموعة كُتَّاب

الكتاب: الأَزهر .. منارة العالم مُنذ أَلف عام

الكاتب: مجموعة كُتَّاب

الطبعة: 2021

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس: 35878373

http://www.bookapa.com   E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أَثناء النشر

الأَزهــر منارة العالم مُنذ ألف عام / مجموعة كُتَّاب

- الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

187 ص، 18*21 سم.

الترقيم الدولي: 0 – 85 – 6837- 977- 978

أ – العنوان   رقم الإيداع: 16308 / 2020

الأَزهـــر

منارة العالم مُنذ أَلف عام





مقدمة

يحظى الأزهر (جامعا وجامعة) بمكانة كبيرة في التاريخ المصري الوسيط والمعاصر، وهي مكانة لم تتحقق لأي مؤسسة مصرية أخرى، فقد كان للجامع الأزهر دورا بارزا في قيادة الحركة الوطنية المصرية ضد الاستعمار، وكانت المظاهرات تخرج منه، وكان كذلك نبعا ثريا نهلت منه الثقافة المصرية فاكتسبت منه الكثير مما أثراها وأكد أصالتها وتميزها.

وإذا ذكر الأزهر ذكرت القاهرة، وعادت الذاكرة أكثر من ألف عام إلى الوراء، عندما دخل الفاطميون مصر، وبنوا القاهرة متخذين منها عاصمة لدولتهم الجديدة، وأنشأوا الجامع الأزهر ليكون رمزا لسيادتهم الروحية، ومنبرا لدعوتهم الدينية التي حاولت الدولة الجديدة ترويجها في مصر.

وقد تم إنشاء الجامع الأزهر على يد جوهر الصقلي ، قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في 24 جمادى الأولى 359هـ/ 4 أبريل 970م؛ أي بعد عام من تأسيس مدينة القاهرة، واستغرق بناؤه ما يقرب من 27 شهرًا، حيث افتُتِح للصلاة في يوم الجمعة 7 رمضان 361هـ الموافق 21 يونيه 972م، وما لبث أن تحول إلى جامعة علمية، وقد سمي هذا الجامع عقب إنشائه بجامع القاهرة, باسم العاصمة الجديدة, وظلَّ معروفًا بهذا الاسم زمنًا طويلًا، ثم زاحمه الاسم الجديد (الأزهر) وقد ظل معروفًا باسمه

القديم إلى القرن التاسع الهجري؛ إذ ذكره المقريزي في خططه بهذا الاسم مضافًا إليه اسمه الجديد (الأزهر)، فقال: "وهو الجامع الذي يعرف في وقتنا هذا بالجامع الأزهر, ويسمى في كتب التاريخ بجامع القاهرة".

وقد ذكره ابن خلكان - في القرن السابع الهجري بما يفيد تداول الاسم الجديد- فقال في ترجمته لجوهر الصقلي: "وأظن هذا الجامع هو المعروف بالأزهر" واشتهاره في عهد ابن خلكان بهذا الاسم يدل على أنه عرف به من قبل ذلك, لكن في زمنٍ غير معروفٍ بالتحديد ، وبعضهم يرى أن هذه التسمية الجديدة سرت إليه بعد إنشاء القصور الفاطمية في عهد العزيز بالله, وقد كان يطلق عليها القصور الزاهرة. هذا, وقد تُنُوسِيَ الاسم الأول, وغلب الاسم الجديد عليه إلى اليوم, فأصبح معروفًا به فحسب.

وأما سرُّ هذه التسمية؛ فيرى بعض المؤرخين أنه سُمِّيَ بذلك تفاؤلًا بما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بإزهار العلوم فيه. وفي دائرة المعارف الإسلامية, أن إنشاء الفاطميين لهذا المسجد يفسر الاسم الذي أطلق عليه فقد قيل أن الزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد زوال دولة الفاطميين على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي في الثالث من المحرم 567هـ/ 11 سبتمبر1171م عطَّل صلاة الجمعة في الجامع الأزهر وأنشأ عدة مدارس سُنِيَّة لتنافسه في رسالته العلمية للقضاء على المذهب الشيعي في مصر، واستطاع بهذه الخطوة أن

يعيد إلى مصر المذهب السُني بحيوية ونشاط، فانتهت بـذلك علاقـة الجـامع الأزهر بالمذهب الشيعي.

***

والجامع الأزهر هو أقدم جامعـة متكاملـة الأركـان في العـالم مـن حيـث أعضاء هيئة التدريس في مختلف التخصصات والمذاهب الفقهية، وطلاب مـن شتى بقاع العالم، وكتب دراسية، ومكتبات عامة، ومـسكن جـامعي تتـوفر بـه كافة سُبُل الإعاشة بالمجان، وهو رائد التقدم والازدهار، وعنوان قدرة الشعب المصري خاصـة والـشعوب العربيـة والإسـلامية عامـة عـلى الـسبق الحـضاري والإنجاز العلمي، فلم يكن عطاؤه على مدى القرون قاصرًا على علوم الشريعة واللغة، وإنما امتد سخاؤه لعلوم الدنيا التي تفيد الإنسانية جمعاء

فمنذ أن صار الجامع الأزهر جامعة علمية سارت الدراسـة فيـه سـيرًا سلسًا، دون تقنين، فكـان الطالـب يفـد إلى سـاحته راغبـا في العلـم، وكـان يتردد على من يشاء من الأساتذة، يتلقى مـن فـيض علمهـم أي عـدد مـن السنين، ففي بداية الأمر كانت الدراسة في الجامع الأزهر تقوم على تعلـيم العلـوم الدينيـة وعلـوم اللغـة العربيـة، ولم تكـن بـه امتحانـات ولا يمـنح شهادات، وإنما كان الشيخ يُخصَص له عمودٌ بالجامع الأزهر، ويلقى عنـده دروسه في وقت معين من كل يوم، ويستمع إليه من شـاء مـن المجـاورين أو غيرهم دون قيد، فيجلسون حوله في حلقات, يسمعون له ويكتبـون مـا يمليه، فإذا أنس أحد الطلبة من نفسه استيعابًا للدروس ذهـب إلى الـشيخ

وأسمعه ما حفظه أو فهمه، ويناقشه الشيخ فيه, فإذا وُفِّق الطالب في المناقشة يجيزه الشيخ، وكان عماد الدراسة -إذ ذاك النقاش- والحوار بين الطلبة وأساتذتهم بما يثقف العقل وينمى ملكة الفهم، وظلوا على ذلك مدة طويلة إلى أن اقتضى الحال وضع قوانين خاصة للأزهر وطلبته وعلمائه وإدارته والدراسة فيه

وكانت العلوم التى تُدرَّس في الجامع الأزهر تزيد عن العشرين علمًا منها: الفقه - التفسير- الحديث - التوحيد- التصوف – النحو والصرف - المنطق- البلاغة - الحساب - الجبر والمقابلة – الفلك – اللغة - العروضو القوافي.

وكانت الدراسة في الجامع الأزهر تبدأ بعد صلاة الفجر حتى صلاة العشاء.

***

والكتاب الذي نقدمه لك اليوم ليس مجرد كتاب عن الأزهر، بل ليس كتابا عاديا، فهو في حد ذاته حدث، إذ صدرت طبعته الأولى في القاهرة منذ أكثر من أربعة عقود، وضمن الاحتفالات بألفية الأزهر، ويضم عددا من الدراسات المتكاملة عن الأزهر ألقيت في محافل علمية قاهرية ضمن احتفالات مصر بألفية الجامع والعاصمة.

ويأتى التكامل والشمول في هذا الكتاب من تنوع تخصصات الباحثين ومن تعدد زوايا رؤيتهم للأزهر، فالمؤرخ الدكتور عبد الرحمن زكي،

صاحب كتاب (الأزهر وما حوله من الأثار) ، يقـدم بحثـا ضـافيا عـن "عـمارة الأزهر" يتحدث فيه عن المسجد وتصميمه زمن بنائه، ويثبت أن جامع الأزهر اليوم، ليس كله بالجامع الفاطمي الأصلي، بل هو حصيلة إضافات مـن الآثـار ضمت إليه في أزمان متتابعة، ويقوم في بحثه بالحديث عـن تخطـيط الجـامع وزياداته وزخارفه في العصر الفـاطمي وفي العـصور التـي تلتـه حتـى مـشروع تطوير الأزهر في عام 1962.

أما الدكتور عيسى عبده فيرجع لتـاريخ الجـبرتي مستخلـصا الـصورة التـي رسمها للأزهر الشريف من خلال ما ورد بكتابه من وقائع وأحداث.

أما الدكتور سيد نوفل فيخصص بحثه لتناول أشهر الثورات الـسياسية في تاريخ الأزهر، مبينا أن تأسيس الجامع الأزهر دينيًا سياسيًا علميًا، وكان تـأثيره ودوره في شؤون الدين والدنيا واسع المدى منذ نـشأته لأكـثر مـن ألـف عـام، فالنظام الروحي في الإسلام هو قاعـدة المبـادئ الخلقيـة، وإذ كـان المـسجد أو الجامع هو المعهد الإسلامي الأول، فقد كان يضم العبـادة والـسياسة، وكانـت المـساجد لعهـد الرسـالة والخلافـة والـصالحين مـن بعـد هـي منـازل العبـادة والحكم معًا، تؤدى فيها الصلاة وتتقرر السياسة، وتوجه منها الغزوات، ويشير إلى ثورة أكتوبر 1798 التي انطلقت من الأزهـر ضـد الاحـتلال الفرنـسي، ومـا تلاها من ثورات كتلك التي نشبت في مايو عام 1805ضد العثمانيين، وكـذلك ثورة 1919.

ويرى الـدكتور أحمـد الـشرباصي أن الثـورات لم تكـن كلهـا سياسـية، فالأزهر قاد ثورات فكرية ولعـل صـلاح الـدين الأيـوبي كـان أول مـن قـام

بثورة فكرية في الأزهر كان لها أثرها، فقد كان سنيًا، فعني بالقضاء على المذهب الشيعي من الأزهر ليغرس مكانه المذهب السني، ومهد لهذه الثورة بأن أنشأ في سنة 566هـ المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو لتدريس المذهب الشافعي، كما أنشأ المدرسة القمحية بجوار المدرسة السابقة لتدريس المذهب المالكي، وعزل صلاح الدين القضاة الشيعيين، وعين بدلهم قضاة شافعيين، وبعد حين ضعف المذهب الشيعي وتقلص، ثم انقرض من مصر. وممن قاموا بثورة فكرية في الأزهر الشريف الشيخ حسن العطار، الذي تولى مشيخة الأزهر، في سنة 1246 هجرية، وعاب على الأزهريين أنهم يعرضون عن كتب المتقدمين وسعة أفقهم، ولا يستفيدون بتراث السلف، ويشير كذلك إلى ما أحدثه رفاعة الطهطاوي من تأثيرات فكرية.

وفي بحث ثان للدكتور الشرباصي يضيء شخصيات هامة من شيوخ الأزهر عبر تاريخه الطويل، وتتكامل دراستا الدكتور أحمد هيكل والدكتور عبدالعزيز الدسوقي مع هذه الدراسة فيشيران إلى أدباء أزهريين، للتدليل على أن رجالات الأزهر لم يعنوا فقط بعلوم الدين واللغة، فعكف أحمد هيكل على أدب مصطفى لطفى المنفلوطى مبرزا ما أحدثه من تطوير في أساليب النثر العربي، بينما درس الدسوقي أشعار الشيخ حسن العطار دراسة فنية وافية، ثم يعود في دراسة ثانية عنوانها " الأزهر ومدارس الشعر المعاصر"، فهو يرى أن الأزهر كان له دور كبير فيما يتعلق بالأدب والثقافة وبصفة خاصة ما يتعلق بالشعر؛ وذلك بفضل التكوين الثقافي

والإعداد العلمي الذي كان يتوافر لأبنائه بصورة كبيرة في مجال العلوم العربية، إلى جانب الفقه والتفسير وبقية العلوم الشرعية. ويشير لكوكبة كبيرة من شعراء الأزهر، ومهما قيل حول شعرهم الآن، فإنه كان متلائمًا مع المرحلة الحضارية التي كانوا يعيشون فيها. فلا يجب محاسبتهم بتلك المعايير الفنية التي نقيس بها شعرنا المعاصر، فهذا يفصل الظواهر الفنية عن سياقها الحضارى ويتجاهل ظروفها وبيئتها.

ويستكمل الأستاذ كمال النجمي ملامح الصورة منطلقا من زاوية قد تبدو للبعض غريبة مثل "الفنانون والأزهر" فقد يتسائل البعض مستنكرا: ما هي الصلة بين الفن، وبين الأزهر؟ لكن النجمي يلمس صلة ما ويقول أن الفن المصري ينتسب إلى الأزهر، ويقصر حديثه على فن الغناء، وأهل هذا الفن في عصر يمتد أكثر من مئة عام، وكلهم انتسب إلى الأزهر بالتعلم فيه أو التعلم منه، أو الاقتباس مما يبعثه خارج جدرانه من النور على سائر الناس.

وهنا يـشير إلى عبـده الحـامولى ويوسـف المنـيلاوي والـشيخ المـسلوب وغيرهم من المطربين والموسـيقيين الـذين درسـوا في الأزهـر وكـان كـل مـنهم يلقب بالشيخ.

وتتوالى الدراسات، وعبرهـا تكتمـل صـورة الأزهـر كجـامع وجامعـة، أثـر طوال ألف سـنة في التـاريخ والـسياسة، وفي علـوم اللغـة والـدين، وفي الفكـر والأدب والفن، أي أثر في الشخصية المصرية بكل أبعادها، وهذا يؤكـد أحقيـة الأزهر الشريف بتلك المكانة الاستثنائية.

الناشر



عمارة الأزهر*

د. عبد الرحمن زكي

نحن الآن في ميدان الأزهر أمام الباب المزدوج، الذي أنشأه الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة 1167هـ - 1753م أمام الباب، وكان يعلوه كتاب، وتجاوره مئذنة وقد هدمها، وفكت مباني الباب ثم أعيد بناؤها في سنة 1896 عند توسعة الشارع وبناء الرواق العباسي، وبإنشاء هذا الباب ضمت المدرستان الطيبرسية والأقبغاوية إلى الأزهر.

شيد الأزهر القائد جوهر الفاطمي في الجنوب الشرقي من مدينة القاهرة، وعلى مقربة من القصر الكبير الذي أقيم حينذاك بين حي الديلم في الشمال وحي الترك في الجنوب، فهو أول جامع أنشئ بمدينة القاهرة الفاطمية. بدأ جوهر في إنشائه في 22 جمادي الأولى سنة 359هـ - 2 أبريل سنة 970م، وفرغ منه في رمضان سنة 361هـ - 972م. والمعروف أن أول جمعة صلاها الفاطميون في الأزهر كانت يوم 6 رمضان سنة 361 هـ.

وجامع الأزهر اليوم، ليس كله بالجامع الفاطمي الأصلي، بل هو حصيلة إضافات من الآثار ضمت إليه في أزمان متتابعة، وسنبدأ بالحديث عن تخطيطه وزياداته وزخارفه في العصر الفاطمي.

---

* عن كتاب (الأزهر وما حوله من الآثار) للمؤرخ الدكتور عبد الرحمن زكي.

الأزهر في العصر الفاطمي:

كان مخططه الأفقي زمن بنائه مكونًا من ثلاثة إيوانات حول الصحن، الشرقي منها مكون من خمسة أروقة، المشرف منها على الصحن يقوم على أكتاف، أما الأروقة الباقية فمن عمد رخامية. وفي كل من الجانبين القبلي والشمالي ثلاثة أروقة، المشرف منها على الصحن قائم على أكتاف أيضًا. أما الجدار الغربي فليست به أروقة، ويتوسطه الباب العام، وكانت تعلوه المنارة.

ويرجح أن هذا الباب كان بارزًا عن الجدار، وبأعلى الجدران شبابيك جصية مفرغة بأشكال هندسية، وعقودها مستديرة، أحيطت بإفريز مكتوب بالخط الكوفي المزهر، وما زالت بقاياه موجودة بالإيوان الشرقي للجامع. ويشطر الإيوان الشرقي مجاز متجه مباشرة إلى المحراب، ارتفعت عقوده وسقفه عند مستوى ارتفاعات الجامع، وقد حليت حافة عقود هذا المجاز بكتابات كوفية، وحليت أيضًا خواصرها بزخارف نباتية مورقة منوعة. وعقود هذا المجاز هي الباقية فقط من عقود الجامع القديمة، أما باقي العقود بالمسجد - عدا العقود التي حول الصحن- فقد تغيرت غير مرة. وينتهي هذا المجاز إلى المحراب القديم الحافل بالزخارف والكتابات الكوفية.

ويعلو المحراب[1] قبة حلت محل قبته القديمة، وكان ينتهي طرفا هذا

([1]) لما بلغ البناء إلى المحراب كتب بدائرة القبة على يمنة المنبر والمحراب (بسم الله الرحمن الرحيم)، مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي، وذلك في ستين وثلثمائه.

الإيوان بقبتين غير موجودتين الآن، وكان للجامع ثلاثة أبواب في جدرانه القبلية والشمالية والغربية.

هذا هو تخطيط الجامع الذي بناه جوهر الصقلي لمولاه المعز لدين الله، والمنبر الأصلي القديم الذي أنشئ بالأزهر عند بنائه نقل فيما بعد إلى جامع الحاكم بأمر الله. وأخذ الخليفة يخطب مرة في الأزهر، ومرة في الجامع الحاكمي، ومرة في جامع عمرو بن العاص، ومرة في جامع أحمد بن طولون. وفي حوالي عام 400هـ-1009م جدد الحاكم بأمر الله الأزهر، وأوقف عليه الأوقاف ثم تبعه من بعده أهل الخيرات، فأصبح يعتمد على أوقاف عظيمة.

وفي عام 417هـ (1035-36م) جدد الجامع الأزهر في خلافة المستنصر بالله معد بن الظاهر لإعزاز دين الله، ثم اقتفى أثره حفيده المنصور أبو علي الآمر بأحكام الله، الذي تولى الخلافة سنة 495هـ-1102م، فأحدث في الأزهر جديدًا. وفي متحف الفن الإسلامي لوح من الخشب كان يعلو محراب الأزهر الذي بناه المنصور أبو علي[2].

ولما تولى أبو الميمون الحافظ لدين الله عبد المجيد سنة 524هـ-1129م، جدد في الأزهر أبنية وأنشأ فيه مقصورة (فاطمة الزهراء)، التي تجاور الباب الغربي الذي في مقدمة الجامع بداخل الأروقة. وقال بعض رجال الآثار أنه أضاف رواقًا يحيط بالصحن من جوانبه الأربعة، مكونًا من

([2]) كتب على هذا المحراب (بسم الله الرحمن الرحيم حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين. أمر بعمل هذا المحراب المبارك برسم الجامع الأزهر سيدنا المنصور أبو علي إمام الآمر بأحكام الله).

عمـد رخاميـة فوقهـا عقـود فارسـية الطـراز وقبـة رشـيقة بـأول المجـاز. ولما انقضت الدولة الفاطمية كانت مساحة الأزهر 13000 ذراع، أي أقـل مـن نصف مساحته الحالية، وقد أصبحت اليوم 26333 ذراعًا (12000 متر مربع).

هذا ما كانت عليه عمارة الأزهر في أيام الفاطميين، حتى بـادت دولـتهم من مصر على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى في عام 567هــ-1171م. ثم عطل إقامـة الجمعـة فيـه حتـى تـولى الملـك الظـاهر بيـبرس حكـم مـصر فأعادها إليه.

الأزهر في العصر المملوكي:

جمع الأمير عز الدين أيدمر الحلي من أمراء الظاهر بيبرس، بعد ما تبدد من أوقاف الأزهر وانتزعه من أيدي غاصبيه، ثم جدد سقوف الجامع وتبلـيط أرضيته وفرشه وكسوته. وكان للأمير بدر الدين بيلبك الخازندار الظـاهري يـد محمودة في هـذا التجديـد، فأنـشأ رواقًـا كبـيرًا وقـف عليـه المـزارع والعقـار، واشترط أن ينفق من غلاتها على مـن ينقطـع في هـذا الـرواق لقـراءة القـرآن الكريم وإسماع كتب السنة المحمدية، وتـدريس فقـه الإمـام الـشافعي (رضي الـلـه عنه). وبعد أن تم تجديد الأزهر، أراد الأمير عز الـدين أيـدمر أن تعـاد الخطبة في منبره إلى ما كانت عليه من قبل، فمن الفقهاء من أجاز ومنهم من منع. وفيمن أجاز قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي، فعمل الأمير عز الـدين بقول من أجاز. وكان لإعادة الخطبة إلى الأزهر حفلة عظمى في هذا الجـامع، ثم في دار الأمير عز الدين، وكان ذلك على قول ابن الفرات في يوم الجمعة 18 ربيع الأول سنة 665ه - 1266م.

وفي عام 702ه - 1302م، حدثت زلزلة عنيفة، خربت قسمًا عظيمًا من مصر والشام، وأصابت الأزهر وبعض مساجد القاهرة بأذاها، فتقاسم الأمراء عمارتها، وأخذ الأمير سلار من رجال المماليك البحرية على نفسه عمارة الأزهر وتجديده. وفي عام 709هـ - 1709م انتهى الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري نقيب الجيوش من إنشاء مدرسته، وجعلها مسجدًا (تعرف بالمدرسة الطيبرسية) وقرر بها درسًا للفقهاء الشافعية، وتأنق في رخامها وتذهيب سقفها وفرشها ببسط منقوشة بشكل المحاريب، وجعل في المدرسة خزانة كتب[3].

وفي عام 725هـ - 1325م جدد الأزهر القاضي نجم الدين محمد بن حسين الأسعردي[4] محتسب القاهرة. وفي عام 740هـ -1339م انتهى الأمير أقبغا علاء الدين الواحدي من إنشاء مدرسته المتصلة بالمدرسة الطيبرسية، وقيل إنه لم يؤسس بنيانها على التقوى، فأخذ أرضها بغير رضى من أصحابها وأنشأها بالعسف. وقد وقف عليها أوقافًا دارة، وجعل لها منارة هي إحدى المنارات الخمس الأزهرية. وفي عام 761هـ - 1360م جدده الأمير الطواشي سعد الدين بشير

(3) مما يدل على إخلاص هذا الأمير النية لله فيما تقرب إليه به من عمله هذا، فإنه لما فرغ من بناء مدرسته أحضر إليه مباشروه حساب مصروفاتها، فلما قدم إليه استدعى طست فيه ماء وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شيء منها، وقال: شيء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه. محب الدين الخطيب، الأزهر، ص16 (ألحقت هذه المدرسة والمدرسة الأقبغاوية بالأزهر فيما بعد).

(4) من سعرد في أرمينية.

الجمدار الناصري، لما سكن بقرب الأزهـر، فأسـتاذن الملـك النـاصر حـسن بـن محمد بن قـلاوون، فـسمح لـه بـأن يقـوم بالإصـلاح. تتبـع جدرانـه وسـقوفه بالتجديد حتى عادت كأنها جديدة، وبيضه وبلطه، وأنشأ عـلى بابـه الجنـوبي حانوتًا لتسبيل الماء العذب، وعمل فوقه مكتبًا لإقـراء أيتـام المـسلمين، ورتـب فيه دروسًا لفقهاء الحنفية، وأنشأ لفقراء المجاورين مطبخًا يوميًا، وأوقف على ذلك أوقافًا جليلة.

وفي سنة 800هــ (1397 - 98م) سـقطت منـارة الجـامع، فأعـاد بناءهـا الظاهر أبو سعيد برقوق بـن آنـص مـن مالـه الخـاص. ولم تـدم هـذه المنـارة طويلًا، فقد سقطت في 817هـ (1414 - 1415م) ثم في عام 827هــ (1423 - 1424م)، وكان يعاد إصلاحها في كـل مـرة. وأنـشأ الـسلطان برقـوق صـهريجًا للماء في صحن الجامع، وعمل فوقه مكانًا مرتفعًا له قبة ويسيل فيه الماء، كما أنه أقام ميضأة. وفي سنة 844هـ (1440 - 41م) شيد جوهر القنقبائي الحبشي الخازندار المدرسة الجوهرية عند الباب الـشمالي الـصغير للأزهـر تجـاه زاويـة العميان، وبداخلها مدفن منشئها.

وفي حكم السلطان الملـك الأشرف أبي النـصر قايتبـاي (872 -901هــ) (1467 - 1496م) أحدث تجديدًا شاملًا في الجـامع، فأنـشأ بـاب المـزينين، المنارة التي هناك، وفسقية وسبيلًا وميضأة، وأحـدث صـهريجًا تجـاه بـاب المغاربة، وشيد على باب الجامع مكتبًا، ونقش في الحجر عـلى البـاب بعـد كتابة كوفية يعسر قراءتها: "إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، لا إله إلا الـلـه محمد رسول الـلـه، نـصر مـن الـلــه وفـتح قريـب، بـسم الـلــه الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذا الباب والمئذنة الـشريفة مولانـا الـسلطان

الأشرف قايتباي بتاريخ شهر رجب الفرد ثلاثة من سنة..". كما أنه جدد رواق المغاربة، ونقش على بابه: "أمر بتجديده مولانا وسيدنا السلطان الملك الأشرف قايتباي، على يد الخواجا مصطفى بن الخواجا محمود، غفر الله لهما".

ولقايتباي نقش على أحد المحاريب وبعض الشبابيك، وكان ذلك في سنة 900هـ - 1495م. وفي سنة 906هـ (1500 - 1م) قام السلطان قنصوه الغوري ببناء مئذنته ذات الرأسين داخل باب المزينين، كما أنه رتب في رمضان 670 دينارًا لمطبخ الأزهر.

الأزهر في أيام العثمانيين:

لما دخل السلطان سليم القاهرة 1517م الأزهر صلى فيه، وأمر بتلاوة القرآن فيه، وتصدق على فقراء المجاورين. وسنذكر فيما يلي أهم عمليات التجديد في ذلك العصر:

فى عام 1004هـ - 1096/1095م جدد الشريف محمد باشا والي مصر بعض أجزاء الأزهر.

وفي عام 1014هـ - 1605م عمر حسن باشا والي مصر مقام الحنفية أحسن عمارة وبلطه.

وجدد الأمير إسماعيل بك القاسمي 1136هـ - 1723م سقف الجامع.

وفي سنة 1148هـ - 1735م أنشأ الأمير عثمان كتخدا زاوية العميان، وجدد رواق الأتراك ورحبة ورواق السليمانية (الأفغانيين)، وزاد

في رواق الشوام، ورتب لذلك مرتبات من وقفه.

وفي سنة 1161هـ - 1748م تقلد ولاية مصر أحمد باشاكور، وتتلمذ للشيخ حسن الجبرتي (والد الشيخ عبد الرحمن)، فأثبت عدة مزاول لمعرفة المواقيت وضع إحداها في ركن صحن الأزهر على يسار الداخل.

وفي سنة 1167هـ - 1753م أنشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا الزيادة التي زادها في الأزهر. قال الجبرتي عنها: أنشأ مقصورة في الجامع مقدار النصف طولًا وعرضًا، ويشتمل على خمسين عمودًا من الرخام، تحمل مثلها من البوائك المقصورة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت، وسقف أعلاها بالخشب وبنى به محرابًا جديدًا ومنبرًا، وأنشأ له بابًا عظيمًا (يعرف بالدوداري) وهو المشهور بباب الصعايدة، وبنى بأعلاه مكتبًا له قناطر معقودة على أعمدة له من الرخام لتعليم الأيتام، وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجًا عظيمًا وسقاية لشرب العطاش، وعمل لنفسه مدفنًا بتلك الرحبة وجعل عليه قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنع، عليها أسماء العشرة من المبشرين بالجنة، ووصفًا للنبى (صلى الله عليه وسلم) وبعض الأشعار. وبالرحبة رواق مخصوص بمجاوري الصعيد المنقطعين لطلب العلم، ومرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب.

وبنى بجانب ذلك الباب (المزينين) منارة، وأنشأ بابًا آخر جهة مطبخ الجامع، وجعل عليه منارة أيضًا، وجدد المدرسة الطيبرسية وجعلها مع

المدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل باب المزينين الكبير[5]، وهـذا البـاب مؤلف من بابين عظيمين، كل باب بمصراعين، وجعل على يمينه منارة - أزيلـت سنة 1315هـ - وفوقه مكتب وبداخله ميـضأة. وزاد في رواق الـشوام ووقـف عليه، وجدد رواق المكيين والتكروريين، فكان مجموع ما عمله (عبد الرحمن) في الأزهر مما تقصر عنه همم الملـوك. وفي مـدة مـشيخة الـشيخ عبـد اللــه الـشرقاوي 1208- 1227هــ/ 1793- 1812م لم يكـن لمواطنيـه مـن مجـاورى مديرية الشرقية رواق خاص بهم، وإنمـا يقطنـون المدرسـة الطيبرسـية. واتفـق حدوث خلاف بينهم وبين من في المدرسة من الطلبة أدى إلى إخـراجهم منهـا، فأرسل الشيخ الشرقاوي امرأة ضريرة فقيهة تحضر عنده في درسه، إلى عديلـة هانم زوجة إبراهيم بك زعيم المماليك، فكلمت زوجها في إنـشاء رواق لهـؤلاء الطلبة، فكان ذلك سبب إنشاء رواق الشرقاويين.

الأزهر في القرن التاسع عشر:

وفي عام 1227هـ - 1805-6م أنـشأ الـوالي محمـد عـلي رواق الـسنارية، بالتماس الشيخ محمد وداعة السناري، فاشترى الوالي ربعًا قديمًا في مكان هذا الرواق وشيده ووقف عليه.

([5]) نقش على وجهة الباب من الخارج أبيـات مموهـة بالـذهب، مـشتملة عـلى تـاريخ بنائه (1167هـ) وهي:

إن للعلـم أزهــرًا يتــسامى   كــسماء مــا طاولتهــا ســماء

حيك وافـاه ذا البنـاء ولـولا   منة اللــه مـا تـسامى البنـاء

رب الهـــوى هـــداك وأيًــا   تك نور تهـدي بـه مـن تـشاء

وفي عام 1929هـ/ 1862- 63م قام السيد أبو بكر راتب باشا بإتمام عمل كان قد بدأه الوالي عباس الأول، فأنشأ رواق الحنفية وأنفق عليه من ماله، وشيد فوقه ثلاث عشرة غرفة للمتقدمين من المجاورين في ذلك الرواق، وجعل له خزانة كتب قيمة.

وفي عام 1290هـ - 1873م جدد باب الصعايدة وما يعلوه، وأوقفت ابنة الخديو إسماعيل أوقافًا عظيمة على الأزهر.

وفي عام 1296هـ - 1879م جدد الخديو محمد توفيق نحو ثلث المقصورة القديمة مما يلي باب الشوام، وأصلحت المدرسة الأقبغاوية التي تقوم فيها دار الكتب الأزهرية.

الأزهر في العصر الحديث:

وفي عام 1310هـ - 1892-93م قام ديوان الأوقاف بتجديد صحن الأزهر وما بدائرتيه من البائكات ودربزينات المقصورة القديمة، وأصلح باب المزينين وطرقته، والمدرسة الطيبرسية والأقبغاوية. وفي عام 1314هـ أنشئت في المدرستين المذكورتين دار الكتب الأزهرية. وفي 24 شوال سنة 1315ه - 1897م احتفل بافتتاح الباب العباسي والرواق العباسي أيام مشيخة الشيخ حسونة النواوي رحمه الله، ثم شمل التجديد الأروقة المتصلة بالسور الجنوبي.

ولعل خير وصف للأزهر هو ما جاء في الخطط التوفيقية (ج4، ص 14-26)، فقد وصف العلامة علي باشا مبارك بناء الأزهر الذي كان عليه في أخريات القرن الماضي، وحدد أبعاده، وذكر أبوابه ومحاريبه وقبلاته

ودورات مياهه، وأماكن الوضوء، وصحن المسجد ومناراته ومزاوله، وأروقته وصهاريجه.. إلخ.

موجز وصف الأزهر:

إن الجامع في شكله الحاضر بناء فسيح يقوم على أرض مساحتها 26333 ذراعًا (12000 متر مربع) يحيط به سور مربع الشكل تقريبًا، وبه ثمانية أبواب:

في الجانب الغربي المطل على ميدان الأزهر باب المزينين والباب العباسي، والأول باب شامخ من زيادات الأمير عبد الرحمن كتخدا، والثاني أحدثته نظارة الأوقاف عند تأسيس الرواق العباسي نسبة إلى الخديو عباس الثاني.

وفي الجانب الجنوبي باب المغاربة تجاه درب الأتراك، وباب الشوام، وباب الصعايدة الذي أنشأه عبد الرحمن كتخدا.

وفي الجانب الشمالي باب الجوهرية، وهو باب صغير تجاه زاوية العميان، وهو من إنشاء جوهر القنقبائي. وفي الجانب الشرقي باب الحرمين، وهو مقفل أنشأه عبد الرحمن كتخدا، وباب الشوربة وينسب إلى عبد الرحمن أيضًا.

وتعلو أسوار الأزهر وأبوابه خمس مآذن: ثلاثة في داخل باب المزينين: إحداهما الأقبغاوية، والثانية مئذنة قنصوه الغوري وهي أعلى مناراته، والرابعة بجانب باب الصعايدة، والخامسة بباب الشعرية، وكلتاهما من إنشاء كتخدا.

وينقسم حرم الأزهر إلى رواقين: الرواق الكبير وهو القديم، ويلي الصحن ويمتد من باب الشوام إلى رواق الشراقوة. والرواق الجديد الذي أنشأه عبد الرحمن كتخدا 1167هـ ويلي الرواق القديم ويرتفع عنه بنحو نصف ذراع، وسقف الرواقين من الخشب المتقن الصنع، وترتكز الباكيات على عمد من الرخام الأبيض، أما الباكيات المحيطة بالصحن فترتكز على أكتاف (دعامات)، والعقود من النوع المعروف بالعقود الدقيقة الزاوية. وكان للجامع عشرة محاريب أزيل أربعة وبقي الآن ستة. ففي الرواق الجديد محرابان: المحراب الكبير الذي أقيمت عليه قبة مرتفعة على ستة عمد، ومحراب صغير من شمال المنبر يعرف بقبلة الشيخ الدردير.

وفي الرواق القديم محراب واحد يعرف بالقبلة القديمة، وإن لم يكن محراب الجامع الأصلي، وعليه قبة قديمة. وكان في صحن الجامع أربعة محاريب صغيرة وللجامع منبر واحد وهو حديث. وبالأزهر ما يزيد على 380 عمودًا من الرخام الجميل، جلبت تيجانها من المعابد الوثنية والكنائس القديمة، من الجيزة وأبي صوير وسقارة وميدوم ودهشور.. إلخ.

أَشهر الثورات السياسية في تاريخ الأزهر

د. سيد نوفل

تتحد العبادة والحضارة في الدعوة الإسلامية، ويتصل الدين بالدولة أوثق الاتصال، بل إن استقامة السلوك البشري والسياسة الإنسانية من أهداف العبادة ومقوماتها الأساسية.

فالنظام الروحي في الإسلام هو قاعدة المبادئ الخلقية، وإذ كان المسجد أو الجامع هو المعهد الإسلامي الأول، فقد كان يضم العبادة والسياسة، وكانت المساجد لعهد الرسالة والخلافة والصالحين من بعد هي منازل العبادة والحكم معًا، تؤدى فيها الصلاة وتتقرر السياسة، وتوجه منها الغزوات، وإذ كان العلم هو قاعدة الدين والدنيا معًا في حكم الإسلام، فقد كان لزامًا أن يأوى إلى المساجد أو المعاهد الإسلامية الجامعة. وقد ظهر ذلك على أتمه في مساجد البصرة والكوفة وغيرهما في فجر الإسلام.

ومن هنا كان تأسيس الجامع الأزهر دينيًا سياسيًا علميًا، وكان تأثيره ودوره في شؤون الدين والدنيا واسع المدى منذ نشأته لأكثر من ألف عام خلت، وفي مختلف الحقب التاريخية التي مرت به.

لقد أنشأه الفاطميون إثر اتخاذهم مصر قاعدة لملكهم، وسموه الجامع الأزهر، نسبة إلى فاطمة الزهراء التي ينتمون إليها، وعينوا فيه نحو أربعين من علماء الشيعة، ينشرون في الناس مذهبهم الديني، ويدعون لسياستهم،

ويبشرون بحكمهم. ولهذا كـان طبيعيًا أن يـسعى الأيوبيـون لتغيـير الـصبغة الفاطمية في الأزهر، وأن يتنكـروا لـه مئـة عـام حتـى يـتم لهـم هـذا التغيـير ويمارس الأزهر دوره السياسي من جديد على وجه يرضون عنـه. لكـن زاد مـن شأن دوره العلمي قضاء المغول على مدارس العلم في المشرق العـربي، وانـدثار الوجود الإسلامي الزاهر في الأندلس.

وكان صنيع العثمانيين مع الأزهر أشبه ما يكون بصنيع الأيوبيين أو أقسى منه، وإن حاول قادتهم التزلف إلى علمائه وطلابـه والظفـر بتأييـدهم، ويـدل على طبيعة الأزهر السياسية أنه كان ينتخب لرياسته ناظر أو وزيـر مـن بـين كبـار رجـال الدولـة، وأن الـرئيس العلمـي أو الـشيخ لم يعـرف إلا في العهـد العثماني.

ودور الأزهر الدينى والسياسي لم يتهيـأ لأى مـن الجامعـات الإسـلامية أو غيرها. ويشير المستشرق ك. فـولرز إلى بعـض أسـباب هـذه المكانـة المرموقـة، فيذكر: (وقوع الأزهر في مكان يتوسط العـالم الإسـلامي، وقربـه مـن الحجـاز، وأهمية مصر الاقتصادية وصبغتها العربية، وامتداد القارة الأفريقية فـيما يـلي مصر). ومهما يكن من أمر، فإن دور الأزهر بارز في جميع الأحداث والثورات السياسية التي تعاقبت على وطننا منذ نشأته، ودوره في العالم الإسـلامي يمثـل دور مصر البارز لمختلف العصور الإسلامية، ومنذ الثورة الإسلامية الأولى لعهـد عثمان بن عفان. وقد احتل شيوخه في التـاريخ مكانـة لا تقـل - إن لم تفـق - مكانة الكثيرين من الملوك والولاة، فسجلت عهودهم وسماتها.

وقد أرخ الجـبرتي لـشيوخ الأزهـر في اتـصال وتعاقـب امتـد مئتـي عـام.

وكان شرط القيادة والإدارة من الشروط الأساسية في شيخ الأزهر الصالح، فحين ولي الشيخ إبراهيم بن محمد الباجوري المشيخة منذ قرن مضى، لم يستطع لضعف إرادته النهوض بأعباء المشيخة رغم عظمته العلمية، وحين ظهر ضعفه ووهنه، عين في عام 1271هـ مجلس من أربعة وكلاء للنهوض بأعباء المنصب الكبير.

ويظهر الأثر السياسي لشيخ الأزهر حتى في عهد طغاة المماليك. ويروي صاحب عجائب الآثار أن الطاغية إبراهيم بك ذهب إلى الشيخ العروسي متذللًا متصاغرًا باكيًا، طالبًا أن يؤيده ضد ثورة الشعب على حكمه. كما يروي المؤرخون أنه في عام 1795م استبد الوالي بأهل بلبيس في تحصيل الضرائب، فلجؤوا إلى الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر ليحميهم. ونصح الشيخ الحاكمين: مراد بك وإبراهيم بك، ولكنهما لم يستمعا لنصحه. وحينئذ قاد الشيخ ثورة شملت أهل القاهرة وضواحيها، وتجمع الناس ثلاثة أيام مصرين على سيادة الحق والعدل، أو الجهاد والفداء في سبيلهما. ولم يكن بد للطاغيتين من الرضوخ، وتحرير عهد يوقعانه بالتزام الجباة السيرة الحسنة، والكف عن مد أيديهم إلى أموال الناس بغير حق.

لكن الدور الأزهري لم يكن من صنع شيخ الأزهر وحده، بل من صنع الأزهر كله: شيخه وعلمائه وطلابه جميعًا، ومن صنع الرأي العام الوطني الذي يقرره الأزهر. وإذا ألم بشيخ الأزهر أو بكبار العلماء ضعف عن مسايرة الآمال الوطنية، أو اعترى همتهم فتور، تصدى لهم جمهرة العلماء والطلاب، وأعرضوا عنهم، وتخلوا عن قيادتهم، بل أوقعوا بهم الأذى، ومضوا في سبيل الثورة الوطنية ما استطاعوا إلى تأدية واجب

النضال الوطني للحرية سبيلًا.

والأمثال على ذلك كثيرة ومنها ما حدث في ثورة مارس (آذار) لعام 1800 ضد الفرنسيين، فقد طالت مدتها، وتكبد فيها الفرنسيون من الخسائر ما لا يقل عن خسائر الوطنيين.

وحينئذ لجأ الفرنسيون إلى المصانعة، فاتصلوا بالشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر، وجماعة من زملائه هم المشايخ المهدي والفيومي والسرساوي. واتصل الشرقاوي وزملاؤه بالفرنسيين، وعادوا إلى الثائرين يحملون طلب الفرنسيين بإيقاف الحرب، والعفو عن جميع القائمين بالثورة، وإباحة الخروج والبقاء لمن شاء منهم.

ولم يكد الثوار يسمعون هذه الشروط التي تبعدهم عن هدفهم في التخلص من احتلال الفرنسيين وإجلائهم عن أرض الوطن المقدسة، حتى استنكروا صنيع الشيخ وزملائه، ولقنوه وزملاءه درسًا لا ينسى، (فضربوهم، ورموا عمائمهم إلى الأرض، واسمعوهم قبيح الكلام)، كما تقول الرواية التاريخية المأثورة.

وقد امتد هذا التأثير إلى عهد قريب، ظهر في وقفة الشيخ مصطفى المراغي ضد دخول مصر الحرب العالمية الثانية في خريف عام 1939، ضنًا بمساندة من ساموها سوء العذاب وتنكروا لحقوقها ولسائر الحقوق العربية. وسارت في الشعب المصري العربي، بل في الأمة العربية كلها، قولته المأثورة: "كيف ندخل حربًا لا ناقة لنا فيها ولا جمل؟!"، وكان لوقفته أثرها في حركة على ماهر منذ نهاية 1939 لتجنيب مصر ويلات الحرب، ثم في حركة رشيد علي الكيلاني العراقية صدى للحركة المصرية ومن بعدها

بعامين. وكانت مداخلات الشيخ المراغي ذات أثـر في شـؤون الحكـم وتـأليف الوزارات في نهاية العشرينات، وفي الثلاثينات لهـذا القـرن. وإذا كـان حـديث الثورات السياسية في تاريخ الأزهر يطـول، فإننـا نكتفـي بالإشـارة إلى أشـهرها وأقربها.

ثورة أكتوبر 1798 على الاحتلال الفرنسي:

في يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى لعام 1213هــ الموافـق 31 من أكتوبر لعام 1798 ميلادية، وبعد ثلاثة أشهر من الاحتلال الفرنسي بقيادة نابليون لمصر، شبت ثورة القاهرة الأولى. وذكرت أسـباب كثـيرة لهـذه الثـورة، فقيل إنها الكساد وسوء الأحـوال، واتفـق الجـبرتي ونـابليون في رد أسـبابها إلى الأوامر الإدارية الفرنـسية التـي أرهقـت الـشعب، وسـنت القـروض والبيـوع الإجبارية، والاستيلاء قسرًا، والغرامات ورسوم التسجيل، ومـا إليهـا مـن ألـوان الاستنزاف والعنت.

ويـضيف إلى ذلـك المعلـم (نقـولا الـترك) اللبنـانى، مراقـب الحملـة ومسجل أحداثها، في كتابه (ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المـصرية والبلاد الشامية)، فيذكر المعلم نقولا أن الطبائع المصرية نفرت مـن إيـلاف الاحتلال الفرنسي رغـم التـودد والتحبـب مـن المحتلـين إلى الـوطنيين، وأن الاستهتار والدعارة الفرنـسيين ضـايقا المـصريين أشـد المـضايقة، فـضلًا عـن (الخمامير التي اشتهرت في كامـل أسـواق المدينـة جهـارًا، حتـى وفي بعـض الجوامع أيضًا)، مما جعـل المـصريين يـؤثرون المـوت عـلى الحيـاة، مـع أن طبقة الأسافل والأراذل كسبت كثيرًا من الانحلال الشائع. ومهما يكـن مـن

سبب، فقد كانت الثورة المصرية على الاحتلال الفرنسي ثورة شعبية عامة بشهادة المؤرخين الفرنسيين وغيرهم. وقد بلغت شعبيتها حد أنها فاجأت المحتلين وأذهلتهم رغم عموم دعوتها قبل وقوعها، وسيرورة الجهر بندائها في كل مكان.

وفي ذلك يقول ج. كريستوفر هيرولد في كتابه (نابليون في مصر): "وأغرب ما في الثورة المصرية، التي نشبت في 21 من أكتوبر، أنها أخذت الفرنسيين على غرة، مع أن اقترابها كان ينادى به على الملأ من فوق سطوح المنازل وأعلى المآذن".

ويضيف (هيرولد) أن أعضاء الديوان الذي أقامه نابليون كانوا على علم تام بمقدمات هذه الثورات والإعداد لها، وأنهم مع لقائهم المتصل لنابليون وأعوانه لم يفضلوا إلى الفرنسيين بشيء. ثم يظهر أن نابليون كان يدرك النقمة المصرية، ولهذا حاول امتصاصها بإعلان رغبته في اعتناق الإسلام.

ويقول (المركيز دى لاجونكيير) الضابط الفرنسي، في الجزء الثالث من موسوعته عن حملة نابليون إلى مصر: "كانت الدعوة إلى الثورة تختلط جهرًا بأذان المؤذنين، فكانوا يدعون إلى اللـه وإلى الثورة صباح مساء. فبلغت عوامل الإثارة أقصى المدى، حتى كانت حادثة واحدة تكفي لإضرام بركان الثورة القومية. وكان فرض ضرائب المنازل سببًا كافيًا في إثارة نفوس الذين لم تستثرهم الدعوة الدينية".

ومن هذا يظهر أن أسباب الثورة كانت أعم من هذه الخصوصيات التي حاول بعض المؤرخين إرجاعها إليها.

ولقد كانت هذه الثورة أزهرية القيادة، وكان الجامع الأزهر مقر قيادتها العامة، إذا ساغ هذا التعبير عن أحداث مر عليها مئة وثلاثة وسبعون عامًا.

وقد أخذ علماء الأزهر يبثون الدعوة إلى الثورة بواسطة شيوخ المساجد يحثون عليها في عظاتهم وخطبهم، وبواسطة المؤذنين يدعون إليها خمس مرات في اليوم مع كل صلاة. فكان الأزهريون هم قادة الثورة ودعاة الوطنية والفداء. وفي ذلك يقول هيرولد: "أما العناصر المجاهدة حقًا، فهم الغلاة في الدين كالأئمة وطلاب الأزهر".

ويجمع الجبرتي ونقولا الترك والمؤرخون على أن الذي تزعم الثورة يوم نشوبها عالم أزهري شاب هو الشيخ بدر المقدسي، فقد نزل إلى الشارع، وخطب في جمع غفير من الناس، داعيًا كل مؤمن بالله أن يذهب إلى الجامع الأزهر: "لأن اليوم يوم غزو المؤمنين للكافرين".

ومن بعد ذلك قاد جماعة إلى منزل القاضي التركي إبراهيم أدهم أفندي، وكان وقورًا محترمًا، وطلبوا منه أن يذهب معهم إلى مقر نابليون بونابرت للاحتجاج على المظالم الفرنسية. ولم يكد يتخطى عتبة داره حتى رأى الثائرين في زحف وتكاثر وهياج، فأدرك خطورة الأمر، وانكفأ راجعًا إلى بيته. ولكن الجماهير أصرت على مصاحبته للمسيرة. وحين تشبث بتخاذله، سقط ما كان له من الاحترام في نفوس الناس، فانهالت الجماهير عليه وعلى رجاله ضربًا بالعصى ورجمًا بالأحجار.

وشكلت لجنة لقيادة الثورة، وانتخبت الشيخ السادات من نقباء الأشراف رئيسًا لها، واتخذت في الأزهر مقرها، ونظمت كتائب المتطوعين

وزودتهم بالسلاح والطعام، واندمج شيوخ الأزهر في الصناع والتجـار والعـمال وسائر الطوائف بدعوتهم إلى الجهاد في سبيل الـلـه والوطن.

وتكاثر المعممون - كما يقول الجبرتي - يخطبون الجماهير، ويشعلون نار الحماسة في قلوبهم، وتطايرت أنباء الثورة في سرعة مذهلـة، وأقبـل الفلاحـون وأهل الضواحي إلى القاهرة، وظهرت الأسلحة والرماح والأسهم في الأيدي، مـع الحجارة والعصي والفؤوس وما إليها، وتجمع في الأزهر عدد قدر بأربعين ألفًـا من الثائرين. وبلغت أنباء التجمهر في الأزهر وخان الخلـيلي ومـا حـولهما إلى الجنرال (ديبوي) حاكم القاهرة من قبل بونابرت، فركب الخيل مع عـدد مـن مساعديه حتى صادفته المتاريس التي أقامها الثوار على أبـواب خـان الخلـيلي والنحاسين.

وهنا برز له أحد الثائرين وطعنه برمح فأرداه قتيلًا، كما أجهز الثوار على مساعديه. وكان بونابرت قد غادر القاهرة في رحلة تفتيشية إلى مصر القديمـة والروضة، وحين بلغه مصرع (ديبوي) أسرع بـالعودة إلى مقـره، وعـين (بـون) محل (ديبوي)، واتخذ على الفور أشد الإجراءات للقـضاء عـلى الثـورة وتـدمير الأزهر معقلها.

ويقول هيرولد: "أما بونابرت، فقد ثار غضبه وهو في مقـر قيادتـه بقـصر الألفي، وأمر مدفعيـة القلعـة المعـززة بمـدافع الهـارتزر والمورتـار بـأن تـسدد المدافع إلى الجامع الأزهر، وما حوله من إحياء هي مركز الثورة.

وبدأ ضرب الأزهر بالقنابـل عنـد الظهـر واسـتمر حتـى المـساء، وأصـدر بونابرت أمره إلى الجنرال (بون) بأن يقضي عـلى كـل مـن في الجـامع الأزهـر". وأخذت القنابل تضرب الأزهر ومـا حولـه حتـى تـصدعت الجـدران وانهـارت

الأبنية، وسقط الألـوف قـتلى تحـت الأنقـاض، وجـرى الـدم في الـشوارع مـن الوطنيين والاستعماريين.

وقـدرت المـصادر الفرنـسية عـدد القـتلى مـن الفرنـسيين بخمـسمئة، وعددهم من المصريين بنحو ثلاثة آلاف، ثم اقتحم الفرنسيون الجامع الأزهـر بخيولهم، ونهبوا نفائسه وكتبه، ودنسوا طهارته، وانتهكوا حرماته، وأقاموا فيه مركزًا لهم. كما أسر الفرنسيون زعماء الثورة من علماء الأزهـر، وأعـدموهم في القلعة دون محاكمة، وألقوا بجثثهم خلف الأسوار، ثم قذفوا بها في النيل. ولم يـترك نـابليون أسـلوبًا للوحـشية لم يـستخدمه في التنكيـل بـالثوار والتمثيـل بجثثهم، ولكنه مع ذلك لم يستطع إخماد الثورة إلا بعد أن أحضر طائفـة مـن علماء الأزهر الذين لم يـشتركوا فيهـا لأسـباب شـتى، وأعلـن لهـم العفـو عـما اقترفوه كما قال، واسـتكتبهم منـشورًا يطلـب إلى النـاس الهـدوء، ويـزف لهـم بشرى الصفح المزعوم، والأمر بإخراج الجنود الفرنـسيين مـن الأزهـر، وإعـادة نفائسه وكتبه إليه. وفي ذلك يقول (هيرولد): "وهكذا نجد الجهر بـالعفو عـن الأبرياء، وإعدام الثائرين في الخفاء وتحت جنح الظلام، وهـي سياسـة خليقـة بأن تنال رضاء مكيافيللي!".

وهذه الثورة الأزهرية تخطيطًا وقيادة، من أخلد الثـورات المـصرية عـلى الزمان. فقد كانت بتجربتها القاسية، وخسائرها الفادحـة وتـضحياتها الغاليـة سـببًا في اضـطراب مقـام الفرنـسيين بهـا، ونـشوب ثـورات في جميـع الأقـاليم ضدهم، كما كانت أعظم دافع لمصر في ثورتها الثانية.

ثورة مارس لعام 1800:

كانت ثورة مصر الأولى، وما أثبتته للغزاة الفرنسيين من تعذر استقرارهم في مصر وتحقيق أحلامهم في السيطرة الدولية عليها، وما تبعها من هزيمة لنابليون في عكا من الأسباب التي دعت نابليون إلى العودة خفية إلى فرنسا في السابع عشر من أغسطس عام 1799، مخلفًا قيادة جيش الاحتلال في مصر لـ(كليبر)، كما شجعت العثمانيين على غزو الفرنسيين في مصر اعتمادًا على انضمام المصريين إليهم، لكن الغزو العثماني وما صحبه من تدبير بريطاني، دفع (كليبر) إلى محاربة الجيش التركي المصري، والانتصار عليه في معركة (المطرية) الطاحنة في 23 من شوال لعام 1214هـ، الموافق 20 من مارس لعام 1800. وعاد (كليبر) مزهوًا بانتصاره إلى القاهرة، لكن الثورة الثانية قابلته في ذات الوقت، فقد عز على أهلها هزيمة جندهم وجند إخوانهم الترك المسلمين، وضياع فرصة التخلص من الاحتلال الفرنسي. وكان أبرز رجال هذه الثورة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ومن رجال الأزهر الإعلام، وقد اعتمد فيها على تأييد شيخ الأزهر، وعلمائه وطلابه الذين انبثوا في الأحياء المختلفة وأشعلوا الثورة فيها جميعًا، مستفيدين من تجربة الثورة الأولى في حي الأزهر وحده. وقد دامت سبعة وثلاثين يومًا تخللتها هدنة، وخرج منها الثائرين بشروط مشرفة تضمنت العفو عنهم.

وامتازت هذه الثورة بأعلام كثيرة مشرقة أهمها:

أولًا/ الوحدة الوطنية: فقد التقى فيها الأمراء السابقون والفلاحون، والعلماء والعامة، والأغنياء والفقراء.

ثانيًا/ الشمول: فقد بدأت في حي بولاق، ثم اشتعلت بها أحياء الحسينية وباب الحديد وبركة الرطل وسائر أحياء القاهرة، مما كلف جيش الاحتلال الكثير من الضحايا والخسائر.

ثالثًا/ الاستعداد: فقد عملوا على الاستفادة من أساليب الحرب الحديثة حينئذاك، وأنشئوا بجهودهم الذاتية ووسائلهم المتاحة معملًا للبارود في الخرنفش، وجمعوا مختلف الصناع لصنع الذخيرة وأخرجوا المدافع والأسلحة القديمة من المخابئ والمخازن وأصلحوها واستخدموها، وجمعوا الحديد من كل مكان حتى من المساجد ذاتها، مؤمنين بأن الإسلام عمل ونضال، وأن أعلى درجات الإيمان هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته: كلمة الحرية والعدل والسلام.

رابعًا/ التنظيم: فقد قسموا القاهرة إلى مناطق عسكرية، عينوا لكل منها قائدًا من أعلام الثوار، ونسقوا العمل.

وكان من العسير على جيش الاحتلال أن يثبت في المعركة لولا ما اخترعته البعثة العلمية الفرنسية من وسائل الحرب الأشد حداثة، والتي أطنب الجبرتي في وصف هولها وفي فظاعة استخدامها بعد ثلاثة أسابيع من بدء المعركة. ومع ذلك فقد استطاع الثوار مقاومتها لمدة أسبوعين، ثم نزل الجيش المحتل على شروطهم للمصالحة التي لم يجدوا منها بدًا. لكن هذه الثورة، وما أعقبها من مصرع (كليبر) بيد سليمان الحلبي، وما صاحبها من تطورات دولية، مهدت لتصفية الاحتلال الفرنسي في مصر بعد ثلاث سنوات من مقامه الدامي فيها، وبها كتبت مصر، في تاريخ النضال البشري للحرية، صفحة من أروع الصفحات الوطنية.

ثورة مايو عام 1805:

ومن الثورات الأزهرية التاريخية، ثورة مايو (أيار) لعام 1805، فقد تمرس المصريون بأعمال النضال الوطني وأعبائه ومسؤولياته ثلاث سنوات أثناء الاحتلال الفرنسي، ثم داقوا طعم الحرية والنصر بعد جلاء الجنود المستعمرين عن وطنهم، وقد تبينوا قوتهم، وعجز العثمانيين واحتماءهم بالبريطانيين المستعمرين لتحقيق الأهداف المشتركة. وكان من دوافع الأسى والنقمة على إخوان الإسلام أن العثمانيين بعثوا خسرو باشا (الطاغية المستهتر الأخرق) حاكمًا لمصر بعد جلاء الفرنسيين عنها، وأن طغيانه وما صحبه من صراع بين المماليك والترك من ناحية، وبين زعماء كلا الفريقين من ناحية أخرى، حملت المصريين أشد ألوان العنت حتى ضاقت نفوسهم عن جميع منازع الصبر عليها. وكان محمد علي قائد الجنود الأرناؤود الألبانيين يشارك المصريين النقمة على الحكم العثماني والحاكم الأخرق خسرو باشا.

وكان الإعداد لثورة مصرية وطنية بقيادة شيوخ الأزهر للخروج على الوالي التركي؛ ولتنصيب محمد على واليًا، وسجلت الحركة الوطنية المصرية نصرًا مؤزرًا، ففي يوم الأحد 12 من مايو عام 1805، احتشدت جموع الشعب من علماء الأزهر وطلابه والتجار والفلاحين والعمال، بجوار الأزهر يتزعمهم الشيخ الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر والسيد عمر مكرم نقيب الإشراف. وتعالى لأول مرة هتاف الجماهير المصرية العربية بالانفكاك العربي من الرباط العثماني في هذه العبارة البسيطة التقية: "يارب يا متجلي، أهلك طائفة العثمانلي".

وعقد مؤتمر شعبي بجوار الأزهر تقرر فيه مطالبة الوالي التركي بإخراج الجنود من القاهرة إلى الجيزة، وألا يدخل جندي القاهرة بسلاحه، وعدم فرض الضرائب إلا بموافقة علماء الأزهر والأعيان، وإعادة المواصلات المقطوعة بين القاهرة والصعيد.

وتلكأ الوالي، وواصل الثائرون اجتماعهم في اليوم التالي، وسارت جموعهم المقدرة بعشارت الألوف والممثلة لطوائف الشعب، في يوم 13 من مايو (أيار) عام 1805، إلى منزل محمد علي باشا. وقدم إليه شيخ الأزهر الشرقاوي ونقيب الإشراف عمر مكرم شروطًا للولاية، خلاصتها الحكم بالعدل وفق الشريعة الإسلامية السمحاء، وعدم إبرام الأمور بمشورة زعماء الشعب، وعزله عند المخالفة للآراء الشعبية. ووافق الوالي، وانتصرت إرادة الحرية، وإن قدر لمعاركها أن تتصل من بعد دفاعًا عن كيانها، وعن عهودها المنقوضة.

ثورة مارس عام 1919:

وكانت ثورة 1919 قمة الثورات الوطنية المصرية، وبداية الحركة الاستقلالية الفعالة، وقد تمت بإرادة شعبية إجماعية، اشتركت فيها المدن والقرى جميعًا، وشملت الشعب كافة. وكانت أوامر سلطة الاحتلال البريطاني تتناول جميع المدن والقرى دفعة واحدة، مقاومة للحركة الشاملة الواحدة.

لكن دور الأزهر مع ذلك بارز فيها أعظم البروز، وظاهر أتم الظهور، فزعيمها الأول سعد زغلول من علماء الأزهر الذين تعلموا وتخرجوا فيه، وزادت استنارتهم بما أضافوا إلى ثقافتهم الوطنية من ثقافة أجنبية، والأزهر

كان الملتقى الدائم للثوار من المسلمين والمسيحيين على سواء، يدعمون الوحدة الوطنية النضالية، ويعملون لتنفيذ خطط الثورة في جميع الأقاليم المصرية.

والذين يطالعون يوميات الثورة المصرية كما كتبها المصريون والبريطانيون يتبينون الدور الفعال الذي نهض به الأزهر في ثورة 1919. وقد ظهر الدور الأزهري القيادي منذ اليوم الأول للثورة: يوم 9 من مارس (آذار) لعام 1919. لقد نفى في ذلك اليوم سعد زغلول ومحمد محمود وإسماعيل صدقي وحمد الباسل إلى مالطا، على أثر مطالبة الوفد المصري بإنهاء الحماية البريطانية والاعتراف باستقلال مصر وسيادتها.

وتقول اليوميات المصرية أن طلبة الأزهر كانوا في مقدمة الطلاب المصريين في اليوم الأول والثاني للثورة، مع طلبة المدارس العليا وبعض المدارس الثانوية. وفي يوم 12 من مارس كان أول تعرض مسلح من الجنود البريطانيين لطلبة الأزهر، وكان أول الشهداء من طلبة الأزهر. وفي يوم 13 من مارس ظهر الأزهريون في قيادة مظاهرة المسجد الحسيني بعد صلاة الجمعة، التي أطلقت (المدرعات البريطانية) عليها النار وقتلت منهم 12 شخصًا.

وكان العلماء وطلبة الأزهر في مطلع المظاهرة الكبرى في 17 من مارس. وكان علماء الأزهر في مقدمة العناصر التي يستشيرها الوفد في خطواته، مثلما حدث قبل تقديم تقرير الوفد إلى المارشال (اللنبي) في 26 من مارس، إذ استشار فيه علماء الأزهر وبطريرك الأقباط وبعض الوزراء والنواب.

وفي أول أبريـل "اشـتدت ثـورة الأزهـر وكـثرت اجتماعاتـه، حتـى لجـأت الـسلطة العـسكرية إلى مخاطبـة شـيخ الأزهـر في أغلاقـه دفعـة واحـدة، أو الاكتفاء بإغلاقه في غير أوقات الصلاة فأبى".

وتؤكد الوثائق البريطانية الدور الأزهري، ففـي التقـارير اليوميـة لرجـال بريطانيا في مصر شواهد كثيرة، نكتفي بإيراد بعض ما تضمنته تقارير سير (م. تشيتام) إلى لورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية. ففي تقريره عـن يـوم 11 من مارس قال: "انتشرت الثـورة في أمـاكن عديـدة مـن القـاهرة، ففـي سـاعة مبكرة من صباح اليوم تجمع الثائرون، ومعظمهم مـن طلبـة الأزهـر، وبعـض الأفراد في الأماكن الرئيسية بقلب المدينة، وزحفوا نحو ورش السكك الحديدية لإخراج العاملين فيها".

وفي يوم 13 من مارس يتحدث عن أفراد التنظيم في حركة الثورة، وتعـذر التغلب على منطقة الأزهر، قائلًا: "إن الاضـطرابات في هـذه المنطقـة يـصعب التغلب عليها؛ بسبب الرغبـة في منـع الجنـود البريطـانيين مـن الاقـتراب مـن الجامع الأزهر".

وفي يوم 17 من مارس يقول: "سارت مظاهرة في القاهرة ضمت نحـو 10 آلاف شخص بقيادة طلبة الأزهر". وفي يوم 20 من مارس يتحدث عـن تعـاون زعماء الأزهر مع البطريركية القبطية بطريقـة فعالـة وحـرص الأزهـريين عـلى كفالة هذا التعاون.

وهكـذا كـان دور علـماء الأزهـر الـوطنيين المـستنيرين في بدايـة القـرن العشرين مواجهة للاحتلال البريطاني، هو دورهم في نهاية القرن الثـامن عـشر مواجهـــة للاحـــتلال الفرنـــسي. وهـــو دور لم يـــستطع إخفـــاءه مؤرخـــو

الحملة الفرنسية من الفرنسيين ومؤرخو الثورة المصرية من البريطانيين. وهـو دور يتفق مع قواعد الدين الإسلامي ومبادئه: قواعد العمل والنضال والفـداء وضرب أحسن الأسوة وخير المثل، ومبادئ الحريـة والعـدل والـسلام، والعمـل الجاد المخلص لسيادة سلطانها وإعلاء كلمتها.



ثورات فكرية في تاريخ الأَزهر

د. أحمد الشرباصي

يذكر التاريخ أن الذي بنى الأزهر هو جوهر الصقلي قائد جيش المعز لدين الله الفاطمي، وقد أتم بناءه سنة إحدى وستين وثلاثمئة، وقد أريد للأزهر في أول الأمر أن يكون مقرًا للدعوة الفاطمية القائمة على المذهب الشيعي الإسماعيلي، وسموه (الأزهر) نسبة إلى (الزهراء) لقب فاطمة (رضي الله عنها) التي ينتسب إليها الفاطميون، ولكن الله (تبارك وتعالى) أراد للأزهر بعد ذلك أن يكون معقلًا للدراسات الإسلامية والعناية بعلوم الدين واللغة.

ويذكر التاريخ أن الوزير يعقوب بن كلس الذي وقف على الأزهر أوقافًا، أشار سنة 378هـ على العزيز بالله الخليفة الفاطمي أن يحول الأزهر من مسجد شيعي إلى جامعة لتدريس العلوم الدينية والعقلية، وكأن هذا الرأي قد كان إيذانًا بحدوث ثورات فكرية كثيرة في الأزهر، لا نستطيع هنا أن نرصدها على وجه الإحصاء ولكنا نستطيع أن نذكر طائفة منها قد تكون أقوى أثرًا من غيرها في تاريخ هذه الجامعة الإسلامية التليدة.

ولعل صلاح الدين الأيوبي كان أول من قام بثورة فكرية في الأزهر كان لها أثرها وخطرها، فقد كان صلاح الدين سنيًا، فعني بالقضاء على المذهب الشيعي من الأزهر ليغرس مكانه المذهب السني، ومهد لهذه الثورة

بأن أنـشأ في سـنة 566هــ المدرسـة الناصريـة بجـوار جـامع عمـرو لتـدريس المذهب الشافعي، كما أنشأ المدرسة القمحية بجوار المدرسة السابقة لتدريس المذهب المالكي، وعـزل صـلاح الـدين القـضاة الـشيعيين، وعـين بـدلهم قـضاة شافعيين، وكان صـلاح الـدين شـافعيًا، وبعـد حـين ضـعف المـذهب الـشيعي وتقلص، ثم انقرض من مصر، وبعد أن كان اسم الخليفة الفاطمي يـذكر عـلى منبر الأزهر، صار يذكر اسم الخليفة العباسي. ولقـد كـان سـقوط بغـداد عـلى أيدي التتار سنة 656هـ سببًا في اتجاه كثـير مـن العلـماء والفقهـاء إلى مـصر، والاتصال بالأزهر، والتأثر به أو التأثير فيه، مـن أمثـال ابـن حجـر العـسقلاني، والمقريزي، والعيني، والبلقيني، وهم من رجال القـرن التاسـع الهجـري، ومـن أمثال السخاوي والسيوطي من رجال القرن العاشر وصار الأزهـر هـو الجـامع الوحيد الذي يرتفع فيه صوت العلم والدين؛ وذلك لأكـثر مـن سـبب، فالتتـار قـد خربـوا غـيره مـن المـساجد والمـدارس والمعاهـد، والحـضارة العربيـة قـد انقرضـت مـن الأنـدلس (الفـردوس المفقـود)، والأزهـر يوجـد في مـصر التـي تتوسط العالم الإسلامي، والتي لا تبعد عن الحجاز منزل الوحي، ولها أهميتهـا الاقتصادية وصـبغتها العربيـة، وهـي مفتـاح قـارة أفريقيـا، وفيهـا بـذور مـن الثقافة العقلية المصرية القديمة.

وكان أن الأزهر خلال هذه القرون مجتلى الرأى العام في الشعب، ولذلك يـروى أن قايتبـاي - وكـان أكـثر النـاس رعايـة للأزهـر في القـرن التاسـع - كان يتخفى في زي رجل مغربي، ويذهب إلى الأزهر ويسمع مـا يقولـه النـاس فيه.

وكان الناس ينظـرون إلى الأزهـر منـذ القـديم نظـرة خاصـة قائمـة عـلى

الإحساس العميق برسالته وخطير مكانته، يدل على ذلك أن الأمير بهادر استصدر سنة 784هـ مرسومًا من السلطان برقوق، ينص على أن من مات من مجاوري الأزهر عن غير وارث شرعي، فإن تركته توزع على المجاورين في الأزهر، وقد نقش هذا المرسوم، وعلق على الباب البحري الكبير للأزهر.

مصر منبع العلوم والفضائل:

ولقد ظل الأزهري قوي الأثر في الحياة الاجتماعية والعقلية حتى الفتح العثماني لمصر سنة 922هـ، ثم كان هذا الفتح سببًا في ضعف الحياة العلمية في مصر بعامة، وفي الأزهر بخاصة. وعلى الرغم من هذا الضعف ظل الأزهر يصارع ويقاوم، حيث لم يكن هناك معهد علمي سواه، وتألقت في سمائه نجوم رجال أعلام، من أمثال زكريا الأنصاري المتوفي سنة 926هـ ، وعبد الوهاب الشعراني المتوفي سنة 973، وأحمد الدردير المتوفي سنة 1701هـ.

وإذا كان للحكم العثماني في مصر مساوئه الكثيرة، فإن هذا لم يمنع أن نجد أحد الولاة العثمانيين في مصر، يفتح الباب أمام ثورة علمية في الأزهر سنة 1161هـ وذلك الوالي هو (أحمد باشا) المعروف بكوروزير، وكان كما يذكر الجبرتي من أرباب الفضائل. وله رغبة في العلوم الرياضية، وكان الأزهر قد أهمل دراسة العلوم الرياضية، وكان شيخ الأزهر حينئذ هو الشيخ عبد الله الشبراوي.

فلما وصل ذلك الوالي إلى القاهرة واستقر بالقلعة، ذهب إليه وفد من علماء الأزهر لتهنئته، فدار بين الوالي والوفد حوار في مسائل من العلم، إلى أن دخل بهم في مسائل العلوم الرياضية، فأمسكوا عن الكلام فيها قائلين: نحن لا نعرف هذه العلوم، فعجب الوالي من ذلك أشد العجب، وكان الشيخ الشبراوي بين ذلك الوفد.

وذات يوم اجتمع الوالي بالشيخ الشبراوي وقال له: المسموع عندنا بالديار الرومية (التركية) أن مصر منبع العلوم والفضائل، ولقد كنت في غاية الشوق إلى المجيء إليها. فقال له الشيخ: هي كما سمعتم معدن العلوم والمعارف.

فقال الوالى: وأين هي وأنتم أعظم علمائها، وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم، فلم أجد عندكم منها شيئًا، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول (مثل علمي المنطق والتوحيد) والوسائل (مثل علمي النحو والصرف) ونبذتم المقاصد (يعني العلوم الرياضية)؟

فأجاب الشيخ: نحن لسنا أعظم علمائها، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية، إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث، وذلك من فروض الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين.

فقال الوالى: وأين أجد هذا البعض؟ فأجابه الشيخ: هم موجودون في بيوتهم يسعى إليهم، ثم دله الشيخ على حسن الجبرتي (والد الجبرتي المؤرخ). فطلبه الوالي وسأله عن تلك العلوم، فوجده يحسن معرفتها، فسر

به سرورًا عظيمًا، وصار يكثر من الاجتماع به؛ ليذاكره فيها، ويناقشه في مسائلها. ولم يكن الشيخ حسن الجبرتي هو الوحيد من رجال الأزهر الذين استوعبوا العلوم المختلفة، بل كان هناك مثل الشيخ أحمد الدمنهوري المولود سنة 1101هـ والمتوفي سنة 1192، والذي تولى مشيخة الأزهر سنة 1182 وظل فيها ما يقرب من عشر سنوات، فقد ذكر في سند العلوم التي تلقاها ودرسها أنه درس كتبًا في علوم الحساب والجبر والمقابلة ووضع المزاول، وأسباب الأمراض وعلاجها، والحدود والدوائر والفلك، وعلم الهيئة والهندسة والمساحة والتكعيب، والممالك الطبيعية: الحيوان والنبات والمعادن، وعلم استنباط المياه، وعلم التشريح.. إلخ.

شعر يتوقد رقة وعذوبة:

ونستطيع أن نقول أن الشيخ عبد الله الشبراوي المتوفي سنة 1171هـ والذي تولى مشيخة الأزهر عقب وفاة الشيخ الفيومي، قد أحدث في البيئة الأزهرية ثورة أدبية فنية عاطفية، بما نظمه من شعر غزلي عذب قد يستبعد كثير من الناس أن ينسبه إلى عالم أزهري، فضلًا عن عالم جليل يتولى مشيخة الأزهر في ذلك العهد السابق القديم، وحسبنا أن نذكر هنا أن هذا الشيخ هو صاحب تلك القصيدة المشهورة التي تتوقد رقة وعذوبة، والتي مطلعها:

وحقك أنت المنى والطلب وأنت المراد، وأنت الأرب

ولي فيك يا هاجري صبوة تحير في وصفها كل صب

فهل من السهل على الناس اليوم أن يصدقوا أن هذا الشعر الغزلي

قد صاغه منذ قرابة ثلاثة قرون عالم كبير تولى مشيخة الأزهر ما يقرب من عشر سنوات؟

هزة قوية:

وممن قاموا بثورة فكرية في الأزهر الشريف الشيخ حسن العطار، الذي ولد بالقاهرة سنة 1180هـ، وتعلم في الأزهر كغيره من الطلاب، وهام بالسياحة والرحلات شرقًا وغربًا في البلاد الإسلامية، وكان يشاهد ويتابع ويحاور ويجمع المعلومات. وحينما جاء الفرنسيون إلى مصر في حملتهم المشهورة اتصل العطار ببعض أفرادها، وأخذ يتعلم منهم وينقل عنهم، ويتشبه بهم في البحث والتنقيب العلمي والأدبي والاجتماعي. وفي سنة 1246هـ تولى الشيخ العطار مشيخة الأزهر، فانتهزها فرصة ذهبية، وأخذ يهز الأزهر هزًا عنيفًا قويًا ليستيقظ، وتوفي عليه رحمة الله سنة 1250هـ.

عاب العطار على الأزهريين أنهم يعرضون عن كتب المتقدمين وسعة أفقهم، ولا يستفيدون بتراث السلف القيم العظيم، فقال: "إن من تأمل في علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية، لهم اطلاع واسع على غيرها من العلوم والكتب التي ألفت فيها، حتى كتب المخالفين في العقائد والفروع، وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر في كتب غير أهل الإسلام، من التوراة وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية، ثم هم - مع ذلك - ما أخلوا في تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ولطائف المحاضرات".

ويعود الشيخ العطار في حاشيته على كتاب (جمع الجوامع) فيشيد

بأمر الكتب العلمية المترجمة إلى اللغة العربية، ويوحي بالعناية بها عند علماء الأزهر، فيقول:

"قد عربت كتب في زماننا من كتب الفرنجة، وفيها أعمال كثيرة وأفعال رقيقة، اطلعنا على بعضها، وقد استخرجت تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية، وفي تلك الكتب تكلم القوم في الصناعات الحربية والآلات النارية، ومهدوا فيها قواعد وأصولًا، حتى صار ذلك علمًا مستقلًا ذا فروع كثيرة، ومن سمت به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات، ظهرت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم، وتنوعت فكرته - إن كانت سليمة - في رياض الفهوم.

ولقد تكلم المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدي عن شخصية الشيخ العطار في كتابه (تاريخ الإصلاح في الأزهر)، ونقل نصوصًا له ونصوصًا قيلت عنه، ونوه بشخصيته، وتوسع الأستاذ محمد عبد الغني حسن في كتابه عن الشيخ العطار، وذكر أنه قد امتاز بقراءته الواسعة العميقة للكتب العربية والمعربة في زمانه، ولم يختص بعلم معين، أو بفن بعينه من الفنون، ولكنه كان حريصًا على الإفادة من كل علم، وأنه كان من القلة الأزهرية التي أدركت ضرورة العلوم العقلية والطبيعية لنهوض البلاد، وكان صاحب فضل في التنبيه إلى قيمة العلوم الطبيعية، وإلى ضرورة إدخال العلوم العصرية في الأزهر، وإلى ضرورة الأخذ بالعلوم الطبيعية والأصول الهندسية، بجوار الرسوخ في العلوم الشرعية والأصول الفقهية، وأنه لا شك أن تحرر الشيخ العطار الفكري وبعده عن الجمود، ودعوته إلى الأخذ بالعلوم الحديثة، مع الاهتمام بالعلوم القديمة= قد جذب إليه الطلاب من

كل فج.

ويقـول: "إذا كـان حـسن العطـار لم يوفـق في إصـلاح الأزهـر وبرامجـه وخطط الدراسة فيه كما كان يريد، فإنه قد رزق حظًـا كبـيرًا مـن التوفيـق في الدعوة إلى إصلاح التعليم بالبلاد كلها، فالمدارس العالية الفنيـة التـي أنـشئت بمصر في ذلك العهد - كالهندسة والطب والصيدلة والألـسن - هـي الاسـتجابة الحقيقيـة لـدعوة الـشيخ حـسن العطـار وتطلعاتـه ومناداتـه بحتميـة تغيـير الأحوال في البلاد، والكتب التـي ترجمـت بالمئـات في عـصر محمـد عـلي هـي الصدى المحقق لأمنيـة الـشيخ حـسن العطـار، حـين رأى كتـب الفرنـسيين في الرياضة والعلوم والآداب".

وتأتي ثورة رفاعة رافع الطهطاوي:

ولد رفاعة في طهطا سنة 1216هـ، وتعلم بالأزهر حتى تخرج فيه، ثم اختير ليكون إمامًا لأول بعثة مـصرية أرسـلت إلى فرنـسا سـنة 1825م، وهنـاك تعلـم الفرنسية وأجادها، ودرس كثيرًا من العلوم ومنها التاريخ والجغرافيا، ثم عـاد إلى مصر سنة 1831م، فكان رئيسًا لترجمة الكتب إلى العربية، وألف كتبًـا في التربيـة والأخلاق، وأنشأ جريدة الوقائع المـصرية، وأسـس مدرسـة الألـسن، وتـوفي سـنة 1873م - 1290هـ . ولقد كان الطهطاوي تلميذًا للثـائر الأزهـري الـشيخ حـسن العطار، وممن لازمـوه بـصفة مـستمرة، وحيـنما هـم رفاعـة بالـسفر إلى فرنـسا ذهب إلى شيخه ليتلقى نصيحته، فأوصاه بأن يقوم بتدوين كل ما يـراه في تلـك البلاد العجيبة، وأن يعني بدراسة العلوم التي نبغوا فيها، وكانـت سـبب قـوتهم ونهضتهم، ليقوم بنقلها إلى اللغة العربيـة فيـستفيد أهلهـا منهـا، وينهـضوا كـما

نهض أهل أوروبا.

ومع أن الوظائف التي تولاها الطهطاوي بعد عودته من فرنسا كانت خارج الأزهر، ومع أن صلته الوظيفية أو الرسمية انقطعت عن الأزهر، لم يترك تحريك عوامل الثورة الفكرية بين أبناء الأزهر، بل أخذ يتلمس الوسائل إلى بث أفكاره والأخذ بآرائه في إصلاح الأزهر والنهوض به، لأنه لم ينسَ أنه أحد بنيه؛ ولذلك نراه في كتابه (مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية) يتحدث عن فوائد العلوم الحديثة، ووجوب اغتراف الأزهريين من منابعها، ويقول عن أبناء الأزهر: "إن لهم اليد البيضاء في إتقان الأحكام الشرعية العملية والاعتقادية، وما يجب من العلوم الآلية، كعلوم العربية الاثني عشر، وكالمنطق وآداب البحث، والمقولات وعلم الأصول المعتبر، ولمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

غير أن هذا وحده لا يفي للوطن بقضاء الوطر، والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر، ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة، منوط - بعد ولي الأمر - بهذه العصابة، التي ينبغي أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التي لها مدخل في تقديم الوطنية، من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية، فإنه بانضمامه إلى علوم الشريعة والأحكام، يكون من الأعمال الباقية، ويقتدي بهم في اتباعه الخاص والعام".

ويستحث الطهطاوي همم نجباء أهل الأزهر ليتمسكوا بدراسة العلوم

العصرية، ويقرر أنهم لو فعلوا ذلك لفازوا بدرجة الكمال، وانتظموا في سلك الأقدمين من فحول الرجال، وربما يتعللون بالاحتياج إلى مساعدة الحكومة، والحال أن الحكومة إنما تساعد من تلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد، فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر، فترجع المسألة دورية، والجواب عنها أن الحكومة قد ساعدت بتسهيل الوسائط والوسائل، ليغتنم فرصة ذلك كل طالب وسائل، وكل من سار على الدرب وصل، وإنما المكافأة على تمام العمل".

حدث خطير في تاريخ الأزهر:

وممن يمثلون ثورة فكرية في تاريخ الأزهر الشيخ محمد عياد الطنطاوي، الذي ولد سنة 1810م، وكان أبوه من بلدة (محلة مرحوم) في محافظة الغربية، وقد حفظ صاحبنا القرآن الكريم في (الكتاب) كما حفظ فيه طائفة من المتون، وفي الثالثة عشرة من عمره دخل الأزهر، وتعلم فيه على يدي الشيخ إبراهيم الباجوري، والشيخ حسن العطار، والشيخ حسن السقا، والشيخ محمد الأشموني. واستمر في الأزهر سنوات، ثم مات والده، فأخذ الابن يجمع بين الدراسة والتدريس، ليستعين بذلك على مطالب الحياة، ثم حصل على إجازة التدريس في 20 من المحرم سنة 1244هـ - 1828م، وقام بالتدريس في الأزهر، حيث درس التفسير والمنطق، الشعر والأدب، وظل يقوم بالتدريس عشر سنوات، وتعلم في أثناء ذلك اللغة الفرنسية، ولم يقتصر على جوه الأزهري وبيئته الوطنية، بل خطا خطوة كان لها أثرها وخطرها في عهده، حيث قام بتدريس علوم اللغة العربية في المدرسة الإنجليزية بالقاهرة، وقام بتعليم الفرنجة في بلاده لغة العرب،

واتـصل بالجاليـة الأوروبيـة بالقـاهرة، وفيهـا عـدد كبـير مـن المهندسـين العسكريين والسياسيين، فأثر فيهم وتأثر بهم، وكان أستاذًا في اللغـة العربيـة للمستشرق الفرنسي (فرنيل)، وقرأ معه ديوان الشاعر الشنفرى.

وكـان مـن تلاميـذ الـشيخ الطنطـاوي الأسـتاذ يوسـف الأسـير، والأسـتاذ إبراهيم مرزوق الشاعر الذي تـرجم (أمثـال لافـونتين)، والـشيخ عبـد الهـادي الإبياري، والشيخ عبد السلام الحلبي، وغـيرهم مـن الأعـلام. ومـما يـدل عـلى مدى الثورة الفكرية التي أوقدها الشيخ الطنطاوي في بيئتـه أن نـراه في سـنة 1827م، يقول وهو يدرس في الأزهر أنه لا يعرف أحدًا قبله قـرأ في الأزهـر مـا قرأه من مقامات الحريري والمعلقات من شرح الزوزني. وفي سنة 1840 دعـاه قيصر روسيا ليقوم بتعليم اللغة العربيـة وآدابهـا في القـسم التعليمـي التـابع لوزارة الخارجية بورسيا، فتعلم الشيخ الطنطـاوي اللغـة الروسـية، وانتقـل إلى هناك، فكان انتقاله حدثًا خطيرًا في تاريخ الأزهـر، وفي صـلة العـرب بـالروس، وكان سفره إلى روسيا يوم السبت 24 من المحرم سنة 1256هـ.

وقـد وضـع المستـشرق الـروسي (اغنـاطيوس كراتشوفـسكي) كتابًـا عـن حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وترجمتـه إلى العربيـة سـيدة فلـسطينية هي (كلثـوم عـودة)، وراجـع الترجمـة وعلـق عليهـا الأسـتاذان عبـد الحميـد حـسن ومحمـد عبـد الغنـي حـسن، ونـشر الترجمـة المجلـس الأعـلى لرعايـة الفنـون والآداب والعلـوم الاجتماعيـة سـنة 1964م. ويقـول (كراتشوفـسكي) في كتابـه هـذا: "كـان رحيـل الطنطـاوي إلى ورسـيا حـدثًا كبـيرًا، لـيس في حياته فحسب، بل وفي الاستشراق الروسي أيـضًا، حتـى إن الـصحافة الواسـعة

أولته انتباهًا كبيرًا".

وهـذا هـو العـالم (سـافيليف) الـذي صـار فـيما بعـد مـن علـماء الآثـار المـشهورين وأحـد مؤسـسي جمعيـة الآثـار في روسـيا، يكتـب رسـالة إلى أحـد أصدقائه في سنة 1840 يصور فيهـا تـأثير الـشيخ الطنطـاوي في الجـو الـروسي وغيره فيقول: "أنت تسألني من هذا الرجل الجميل في لباس شرقـي، وعمامـة بيضاء، وله لحية سوداء كجناح الغراب، وعينان تشعان بإشـعاع غريـب، عـلى وجهه سمة الذكاء، وقد لفحت الشمس بشرته، وليست بالطبع شـمس بلادنـا الشمالية الباردة. لقد رأيتـه مـرتين يـسير بخطـوات وئيـدة عـلى بـلاط شـارع (نفسكي) في جهته المضاءة بالشمس، ولقد لفت هذا الرجل نظري، كـما لفـت أنظار زائري هذا الشارع في أيام الجو الطيب".

وفي القاهرة، وفي الجامع الأزهر، مدرسة من أحسن المدارس، وهناك عند الأعمـدة التـي يقـوم عليهـا سـقف غرفـة كبـيرة، يجلـس الأسـاتذة، ويجلـس تلاميذهم بهيئة نصف حلقة حولهم، وكنت تـرى حـول أحـد الأسـاتذة حلقـة تتألف من شعوب مختلفة، وعدد تلاميذها أكـثر ممـن في الحلقـات الأخـرى، بينهم شباب أوروبيون من الـذين يريـدون دراسـة اللغـة العربيـة، هنـا كـان كرسي الشيخ محمد عياد الطنطـاوي، مـن أشـهر العلـماء الـوطنيين، وأكـثرهم إطلاعًا على الآداب الوطنية والتاريخ.

وقـد أذاع شـهرته في أوروبـا مستـشرقان كانـا تليمذيـه، يجلـسان عنـد أعمدة الجامع الأزهر، ثم اشتهرا بمعرفة اللغة العربيـة والـلـهجات، أحـدهما فولجنس فرنيل القنصل بمدينـة جـدة، وصـاحب الرسـائل عـن تـاريخ العـرب

قبل الإسلام، والثاني غوستاف فيل أستاذ هيدلبرج السابق، ومترجم (ألف ليلة وليلة) ومؤلف (شعر العرب قبل محمد)، والفضل لظهور البحثين عن جزيرة العرب قبل محمد يرجع لمساعدة الشيخ للمؤلف، إذ إنه بغير مساعدته ما كان لبحوثهما أن تظهر كما يشهدان.

أستاذ الآداب الشرقية في الجامعة الروسية:

ومما يدل على روح الثورة عند الشيخ الطنطاوي أنه في طريقه إلى روسيا نزل في إيطاليا، ولم يتردد وهو الشيخ المعمم، في ذلك الوقت المبكر الذي تتجلى فيه محافظة الأزهر على العرف والتقاليد أن يزور دار الأوبرا مرتين، حيث شاهد في المرة الأولى رواية (السلطان محمد)، وفي المرة الثانية رواية (العاشقين)، ويذكر الطنطاوي أنه لم يكن هناك معمم من المشاهدين سواه.

وكذلك نزل وهو في طريقه مدينة (كييف)، وحرص على أن يزور دير اللافرا وكنيسة القديسة صوفيا، وكنيسة القديس أندراوس، وحضر حفل استعراض الجيش يوم الأحد، وزار مدرسة البنات، وسمع العزف على البيانو، وفعل كل هذا وهو بعمامته وثيابه الأزهرية.

وشغل الشيخ الطنطاوي كرسي الآداب الشرقية في الجامعة الروسية، وكان يجمع بين الطرق النظرية والطرق العلمية، فمن جهة كان يدرس قواعد اللغة، ويشرح أمثال لقمان، ويقرأ قطعًا من مؤلفات تاريخية من مجموعة (بولدريف) ومقامات الحريري، ومن جهة أخرى كان يدرس الترجمة من اللغة الروسية إلى العربية، والخطوط الشرقية، وقرأ المخطوطات، والمحادثة باللغة العربية، وزاد على ذلك من سنة 1855 تدريس تاريخ

العرب. وترى من المختصرات المحفوظة بين أوراقه أنه كان يشرح في محاضراته تاريخ الخلافة حتى عهد فتوحات المغول.

وحاز الشيخ الطنطاوي ألقابًا وأوسمة ومداليات وهدايا من القيصر وولي عهده، وصادف في روسيا تقديرًا وانتباهًا، وإن الإعجاب به كان يتملك كل من يلتقي به من الواقفين على حقائق الأمور. وعلى الرغم من النشاط الموصول الذي كان يبذله الطنطاوي في التدريس والحوار والرحلة، فقد ألف مجموعة قيمة من الكتب. ألف في النحو والصرف، والفلك والجبر، والميراث والحساب، والعقائد والتاريخ، والبلاغة والشعر والعروض، والتوحيد، كما نظم الشعر، وكتب الرسائل وكتب القصص، ووضع القواميس.

ولقد استفاد من الشيخ الطنطاوي طائفة كبيرة من المستشرقين، أمثال نقولا موخين، وفرين فرانيل، وبيرون رفيل، وغيرهم من الفرنسيين والألمان والروس. والذي يزور مقبرة التتر في قرية (فولكوفا) الروسية يجد فيها قبر الشيخ محمد عياد الطنطاوي المصري الأزهري، الذي كانت حياته صورة من صور الثورات الفكرية الملحوظة في تاريخ الأزهر الطويل.

الدعوة لفتح باب الاجتهاد:

ثم جاءت في تاريخ الأزهر ثورة (جمال الذين الأفغاني) موقظ الشرق الإسلامي من سباته. لقد ولد جمال الدين الأفغاني في سنة 1254هـ، ودرس في أفغانستان، وحصل جملة من العلوم فيها الطب والتشريح والفنون الحربية، ثم درس في الهند حيث حصل فيها العلوم العصرية وتعلم اللغة الإنجليزية مع التركية والفارسية. وجاء إلى مصر سنة 1286هـ وكان

في شرح شبابه، فأيقظ سبات الأزهر، ودعا إلى فتح باب الاجتهاد في الدين، ولقي في سبيل دعوته أهوالًا من الأعداء والأولياء، وعلى سبيل المثال كان الخديو حكم مصر، وكان يقول للأفغانى: "أنت موضع آمالي في مصر أيها السيد"، ولكن الخديو انقلب على جمال الدين بسبب السعايات الأجنبية بينهما، وكانت النتيجة هي نفي جمال الدين من مصر، بعد أن بذر في محيط علماء الأزهر بذور ثورة فكرية واجتماعية واسعة النطاق. وأصدر جمال الدين مع تليمذه وصديقه الشيخ محمد عبده مجلة (العروة الوثقى)، التي كانت أعظم مجلة إسلامية نهز العالم الإسلامي هزًا عنيفًا.

ثم جاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فحمل مشعل الإصلاح والثورة الفكرية في الأزهر، بعد أن ضاق بنظام الأزهر منذ شبابه، وأراد إصلاح الإدارة، وإصلاح التدريس، وتغيير الكتب، واستطاع أن يحقق الأمور التالية:

1- إنشاء مجلس إدارة للأزهر سنة 1312هـ.
2- ضبط مرتبات العلماء وطريقة توزيعها.
3- ربط المعاهد الدينية في مصر بالجامع الأزهر.
4- إصلاح نظام التدريس.
5- وضع نظم للامتحانات.
6- إصدار طائفة من القوانين للإصلاح.

ولقد قال الشيخ محمد عبده: "إني بذرت في الأزهر بذرًا إما أن ينبت ويثمر، ويؤتي أكله المغذي للروح والعقل، فيحيا به الأزهر حياة جديدة،

وإما أن يقضي الـلـه على هذا المكان قضاءه الأخير". وعاد الأستاذ الإمام فقال: "إنني ألقيت في الأزهر مشكاة لا تنطفئ، إن لم تلتهب اليوم أو غدًا، فستلتهب في ثلاثين عامًا، وستكون ضرامًا".

وقد حورب الشيخ محمد عبده في ثورته الفكرية حربًا لا هوادة فيها، وتفاصيل ثورته كثيرة واسعة، تكفلت ببيانها مصادر ومراجع كثيرة، ولقد عنيت بالإشارة إلى ذلك في كتابي (مدرسة الأستاذ الإمام)، وكتابي (رشيد رضا صاحب المنار).

ثم جاءت ثورة فكرية أخرى في عهد الشيخ محمد مصطفى المراغي، وهو من تلاميذ الشيخ محمد عبده، وقد دعا المراغي إلى محاربة الجمود في الأزهر، وإلى صلة الأزهريين بالمجتمع، وإلى التجديد في التدريس والتأليف، وإلى ربط الدين بالحياة، ووضع في سنة 1928 مذكراته التي توضح ملامح ثورته الفكرية في الأزهر، وفيها يقول:

"يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة، وأن تدرس السنة دراسة جيدة، وأن يفهما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية - فقهها وآدابها - من المعاني، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة، وأن يبتعد في تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه، وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة العربية.

يجب أن تهذب العقائد والعبادات، وتنقى مما جد فيها وابتدع، وتهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق وقواعد الإسلام الصحيحة. يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة

والأحكام المجمع عليها، والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة، كما كان يفعل السلف من الفقهاء.

يجب أن تدرس أصول المذاهب في العالم قديمها وحديثها، وكل المسائل العلمية في النظام الشمسي والمواليد الثلاثة، مما يتوقف عليه فهم القرآن في أول الآيات التي أشارت إلى ذلك.

يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف، وأن يضاف إلى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحدديث في بحث اللغات وآدابها.

يجب أن توجد كتب قيمة في جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة - في عصور الإسلام الزاهرة - والطرق الحديثة المعروفة الآن عند علماء التربية. وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين وكل ما هو قطعي فيه محافظة تامة، وأن تهذب الأساليب، ويهذب كل ما حدث بالاجتهاد، بحيث لا يبقى منه إلا ما هو صحيح من جهة الدليل، وكل ما هو موافق لمصلحة العباد".

رصيد الثورات الأزهرية:

إن في تاريخ الأزهر الطويل العريض عشرات وعشرات من الثورات الفكرية، وقد ذكرت طائفة منها، دون أن أدخل في التفاصيل أو إصدار الأحكام على هذه الثورات، فقد تكون هنا بعض الملاحظ، وقد تكون هناك بعض المآخذ، وقد تكون هنالك بعض العيوب، وتبيان ذلك على

وجهه الكامل الشامل جهد واسع تضيق به ظروف الزمان والمكان، ومن حق كل ثورة من هذه الثورات أن تنال حقها المستقل من التحليل والتمحيص، ولعل ذلك يتيسر لهذا القلم أو ذاك، وعلى الله قصد السبيل.



أَعظم الشيوخ في تاريخ الأَزهر ومؤلفاتهم

د. أحمد الشرباصي

إن تـاريخ الأزهـر طويـل عـريض، يـستطيع الباحـث فيـه أن يـصول ويجول، ليستعرض أكثر من ناحية أو أكثر من اتجاه، فهنـاك النـواحي الدينيـة والفكرية والسياسية والاجتماعيـة والأدبيـة وغيرهـا. وإن ألـف عـام تمـر عـلى الأزهر وهو قائم ثابت لدليل أي دليل على أن اللـه (تبارك وتعالى) قد أعطى هذا المعهد الإسلامي الأكبر من عوامل البقاء والخلود شيئًا كثـيرًا، عـلى الـرغم مما عرض له أو حاق به.

وإني الآن بسبيل أن أتحدث حديث الإيجاز عن بعـض الـشيوخ اللامعـين في تاريخ الأزهر، وعـن كتـبهم ومؤلفـاتهم التـي تـصور عقليـاتهم وجهـودهم الثقافية والفكرية، حتى يكون ذلك الحديث لونًا من ألوان التعريـف بـالتراث الفكري الضخم، الذي يرتبط بتاريخ هذه الجامعة الإسلامية العربيـة التليـدة. هذا الحديث لا يستوعب ولا يستقصى، بل يقوم بمسيرة عاجلـة خـلال قـرون الأزهر العشرة، فيختار منها طائفة من الشيوخ، منذ فتح الأزهر أبوابـه، حتـى آخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العـشرين، وأمـا القـرن العـشرون فقـد حفل بعشرات وعشرات من الأزهريين الذين غزر إنتاجهم، وكـثرت مؤلفـاتهم، وهؤلاء جديرون بأن يستقلوا بحديث.

وصاحب هذا البحث لا يستطيع أن يزعم لنفسه - فضلًا عن أن يزعم لغيره - أنه قد أحصى مؤلفات كل شيخ من هؤلاء الأعلام، وإنما الذي كان أنه بحث وفتش، مستعينًا بكتب السابقين وكتب اللاحقين، وانتخل من هذا العباب خلاصة تصلح أن تكون علامة بارزة على طريق التعرف المفصل إلى تراث الأزهر في مجال التأليف والإنتاج الفكري.

وإذا كان ابن تغري بردي قد عرفنا في كتابه (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) بطائفة من أعلام الأزهر الذين تألقوا منذ قرون، فإن عبد الرحمن الجبرتي قد عرفنا في تاريخه بطائفة أخرى منذ قرابة قرنين، وجاء باحثون معاصرون فعرفوا بطوائف من أعلام الأزهر في القديم والحديث، فكتب الأستاذ محمد عبد الله عنان كتابه (تاريخ الجامع الأزهر)، وظهر للدكتور عبد الحميد يونس كتابه (الجامع الأزهر)، وظهر للدكتور كامل الفقي كتابه (الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة)، وظهر للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي كتابه (الأزهر في ألف عام)، وظهر من وزارة الأوقاف كتاب (الأزهر: تاريخه وتطوره)، وظهر للشيخ عبد المتعال الصعيدي كتابه (تاريخ الإصلاح في الأزهر)، وظهر للدكتور أحمد الشرباصي كتابه (في عالم المكفوفين)، ومنهم طائفة كبيرة من هؤلاء الأعلام الأزهريين، وظهر كتاب (الأعلام) للأستاذ خير الدين الزركلي، وهو يضم في تراجمه أخبارًا عن كثير من هؤلاء الأعلام.. وهذه المجموعة من مشهوري الشيوخ إما أن يكونوا قد تعلموا في الأزهر، أو قاموا بالتدريس في الأزهر، أو كان للأزهر تأثير فيهم بطريق مباشر أو غير مباشر، أو كان لهم تأثير في مسيرة الأزهر الفكرية بطريق مباشر أو غير مباشر.

ولن يعنينا كثيرًا في هذا المجال أن نطيل عنان الحديث عن تراجم هـؤلاء وأحداث حياتهم، فهـي معروفـة يـسهل عـلى اليـد أن تتنـاول تفاصـيلها مـن المراجع التي ذكرتها أو من سوها، وإنما يعنينا أن نـذكر لكـل واحـد مـنهم مـا نعرفه من مؤلفاته، ليكون ذلك رصدًا تاريخيًا للاتجاهات التـي سـيطرت عـلى هؤلاء في مجال العلم والفكر والثقافة.

وينبغي أن نلاحظ هنا جملة ملاحظات:

أولًا: إن بعض هذه المؤلفات قد طبع، ولكن نسخه نـادرة أو قليلـة، وأن بعضها مفقود أو مجهول المصير، وأن الكثير منها ما زال مخطوطًا ينتظـر اليـد الأمينة النشيطة لإخراجه من الظلـمات إلى النـور، وأن أكثرهـا لم يطلـع عليـه أبناء الجيل الحاضر، حتى من الأزهريين المعاصرين.

ثانيًا: إن الكثير من هذه المؤلفات تدور حول موضوعات دينية أو لغوية، وبعضها يدور حول موضوعات يظن الكثير من الناس أن لا علاقة لها بـالأزهر، كموضوعات الطب والهندسة والفلك والحساب والجبر.

ثالثًا: إن كثيرًا من هذه الكتب كانت مقررة للتدريس في الأزهر، أو شرحًا لهذه الكتب المقـررة، وذلـك أمـر طبيعـي لأن العلـوم التـي كانـت تـدرس في الماضي بالأزهر كانت كثيرة متنوعة.

رابعًا: إن مجموعة هذه المؤلفات تسير في الغالـب عـلى طريقـة أزهريـة خاصة معروفة بين أبناء الأزهر، أو كانت معروفة بيـنهم إلى عهـد قريـب، إذا حرصـنا عـلى الدقـة في التعبـير، وهــي طريقــة (المـتن، فالـشرح، فالحاشـية، فالتعليق، فالتقرير)، وفي سنة 1966 شرحت في كتابي (رسـالة المـسجد في نـشر الثقافة والحضارة) هذه الطريقة.

خامسًا: شيوع السجع في عناوين هذه المؤلفات، ولم يقل السجع في عناوين الكتب إلا أخيرًا، وسنجد بين مئات المؤلفات أمثال هذه العناوين: (دعائم الإسلام في الحلال والحرام - البرهان في تفسير القرآن - المختار في ذكر الخطط والآثار - منهج السلوك إلى نصيحة الملوك - دقائق الأخبار وحدائق الاعتبار - البحر المورود في المواثيق والعهود).. إلخ.

سادسًا: أن هؤلاء الأعلام لم يكونوا من مصر وحدها، بل من أقطار كثيرة، قد تكون من العالم العربي، وقد تكون من العالم الإسلامي، وهذا أمر طبيعي؛ لأن الأزهر ليس جامعة مصرية، وليس جامعة عربية، وإنما هو جامعة إسلامية لكل المسلمين في سائر أنحاء العالم الإسلامي.

اتجاهات علمية واسعة:

وأول شخصية تبدو أمامنا من مشهوري الأزهريين أصحاب المؤلفات والكتب هو أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله بن محمد القيرواني، قاضي المعز لدين الله الفاطمي، وقد كان القيرواني من أعلام الدعاة إلى المذهب الفاطمي الشيعي، وقد توفي سنة ثلاث وستين وثلاثمئة، وكان كتابه (الاقتصار في فقه آل البيت) هو أول كتاب درس في الأزهر، وإلى جوار هذا الكتاب توجد للقيرواني كتب أخرى، منها:

1- مختصر الآثار فيما روى الأئمة الأطهار.
2- الدعائم في المذهب الإسماعيلي.
3- دعائم الإسلام في الحلال والحرام.
4- الينبوع.
5- المجالس والمسايرات.

6- اختلاف أصول المذاهب.

7- الأخبار.

والصبغة الغالبة على هذه المؤلفات أنها كتب فقهية واعتقادية، وأنها تصور نتاج عالم شيعي إسماعيلي، يحاول بالكلمة المكتوبة، كما حاول بالكلمة المنطوقة أن يدعو إلى مذهب الفاطميين الذي شاع في مصر خلال ذلك العهد.

ويأتي بعد ذلك أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن كلس، الذي ولد في بغداد، ورحل إلى مصر سنة 334هـ وكان يهوديًا فأسلم في شعبان سنة 356هـ ثم رحل إلى المغرب، وهناك تعرف إلى المعز لدين الله الفاطمي، وحظي عنده، حتى صار رائدًا لجيش المعز في حملته على مصر، وحضر يعقوب مع المعز إلى مصر سنة 362هـ وقام بالتدريس في الأزهر، وكان بارع الحديث والمحاضرة، وكان ثريًا معطاء، وتولى الوزارة للمعز، ولقبه المعز بلقب الوزير الأجل، وتوفي في ذي الحجة سنة 380هـ وله طائفة من الكتب والمؤلفات، منها:

1- الرسالة الوزيرية في الفقه الشيعي.

2- كتاب في القراءات.

3- كتاب في آداب رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

4- كتاب في علم الأبدان والصحة.

ونلاحظ أن الدعوة إلى المذهب الشيعي ظاهرة في عنوان الكتاب الأول، وأن الناحية الدينية تستحوذ على معظم المؤلفات، ولكن أضيف إليها التأليف في العلوم الطبية، وقد يدلنا هذا على أن رجال الأزهر لم

يقتصروا على البحث في العلوم الشرعية، بل طرقوا أبوابًا غيرها من العلوم والمعارف. وممن تألقت أسماؤهم في تاريخ الأزهر من ناحية العلم والتأليف فيه: أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد الحوفى، الذي كان أمامًا علامة في النحو وعلوم العربية، وقد توفي سنة 430هـ. ومن مؤلفاته:

1- البرهان في تفسير القرآن.

2- الموضح في النحو.

3- إعراب القرآن.

4- مختصر كتاب العين للخليل (فى اللغة).

وإذا كان بعض هذه الكتب يشير إلى العناية بأمر تفسير القرآن الكريم؛ لأن فهم كتاب الله (تبارك وتعالى) يأتي في الصدر بالنسبة إلى علماء الإسلام، فإن بقية الكتب تشير إلى العناية بالنحو واللغة. وللأزهر الشريف منذ أقدم العهود شهرة عالمية بالعكوف على قواعد النحو والصرف، والعناية بمفردات اللغة وتراكيبها، ولعل هذه الكتب التي ألفها الحوفي تشير أيضًا إلى اتساع الاتجاه العلمي داخل الأزهر، فبعد أن كنا نرى الدعوة المذهبية الشيعية غالبة عليه، أخذنا نرى من رجاله عناية بعلوم القرآن وعلوم العربية.

ويأتي الفقيه المفسر المحدث المؤرخ: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي المولود بمصر، والذي تولى القضاء في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وأرسله الخليفة إلى قيصرة قسطنطينية (تيودورا) سنة 447هـ لمحاولة الصلح بينها وبين مصر، والذي تأثر بالأزهر وأثر فيه، وتوفي بمصر سنة 454هـ، وكانت له مجموعة مؤلفات ضخمة منها:

1- تفسير القرآن (عشرون مجلدًا).

2- تواريخ الخلفاء.

3- خطط مصر.

4- درة الواعظين وذخر العابدين.

5- نزهة الألباب.

6- دقائق الأخبار وحدائق الاعتبار.

7- دستور معالم الحكم.

8- ألف ومئتا كلمة من حديث رسول اللـه (صلى اللـه عليه وسلم).

9- الشهاب في المواعظ والآداب.

10- مسند الصحاب.

11- أنباء الأنبياء.

12- مناقب الإمام الشافعي.

13- عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف.

14- المختار في ذكر الخطط والآثار.

ونلاحظ أن الصبغة الغالبة على هذه المؤلفات هي الميل إلى التاريخ والوعظ، ولكن لا يفوتنا التنويه بأحد هذه الكتب وهو (دستور معالم الحكم)، فعنوانه قد يفهمنا أن من علماء الأزهر من أخذ يكتب عن السياسة الشرعية وعن الأمور التي تتصل بالحكم والمجتمع، وهذا إسهام شخصي من القضاعي وأمثاله في توسيع دائرة الدراسات التي شهدها الأزهر الشريف خلال تاريخه الطويل. ويأتي اللغوي النحوي أبو الحسن طاهر بن أحمد المصري، المعروف بابن باب شاذ، الذي كان إمام عصره في

النحو واللغة، وتأثر بالأزهر وأثر فيه، وكان تاجرًا في الجواهر، وتولى إصلاح ما يصدر من كتابات عن (ديوان الإنشاء) في مصر، وتزهد في آخر حياته، وتوفي سنة 465هـ وقد ألف عدة كتب منها:

1-شرح الجمل للزجاجي.

2-شرح الأصول لابن السراج.

3-شرح النخبة.

4-التعليق في النحو (خمسة عشر مجلدًا).

5-المحتسب في النحو.

ومن الجلي أن المجرى الرئيسي لكتب ابن باب شاذ هو مجرى الدراسات النحوية، وكان هذه المؤلفات امتداد للاتجاه الذي سار فيه الحوفي وأمثاله، كما أن هذه المؤلفات تمثل ما نستطيع أن نسميه بالكتب الدراسية في الأزهر حينئذ.

ويأتي أبو نصر المؤيد في الدين: هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي، الذي لقبوه بداعي الدعاة وباب الأبواب، وأصله من شيراز، ورحل إلى الأهواز، ثم رحل إلى مصر، ودعا إلى مذهب الفاطميين، وكان يلقي دروسه في الأزهر، وكان شاعرًا مناظرًا، ناظر أبا العلاء المعري بالمراسلة في موضوع (أكل النبات)، وتوفي بمصر سنة 470هـ وعمره ثمانون عامًا، وترك من ورائه مجموعة كتب ومؤلفات نذكر منها:

1- المجالس المؤيدية.

2- السيرة المؤيدية.

3- ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة.

4- أساس التأويل (بالفارسية).

5- مراسلات مع أبي العلاء المعري.

6- تأويل الأرواح.

7- المرشد إلى أدب الإسماعيلية.

8- كتاب الابتداء والانتهاء.

9- كتاب المسألة والجواب.

10- المسائل السبعون.

11- نهج الهداية للمهتدين.

12- نهج العباد وشرح المعاد.

13- الإيضاح والتبصير في فضل يوم الغدير.

ونشاهد أن الميل إلى الدراسات المذهبية الشيعية يبدو جليًا في هذه القائمة من المؤلفات، في الوقت الذي كان أبناء الإسلام يأملون فيه أن ينفسح رحاب الأزهر المعمور لدراسات فقهية وإسلامية أوسع وأشمل؛ حتى لا يقتصر البحث على مذهب بعينه أو اتجاه بذاته.

وكي لا يطول بنا الانتظار في تاريخ الأزهر الشريف حتى يأخذ أبصارنا ضوء علم من الأعلام، تأثر بالأزهر وأثر فيه، وهو الشيخ العلامة الإمام شيخ الإسلام: عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب السلمي الدمشقي الشافعي، المشهور باسم (العز بن عبد السلام) أو (عز الدين بن عبد السلام) والملقب بلقب (سلطان العلماء). وقد ولد بدمشق سنة 587هـ وتألق في العلم والفقه، فأفتى وألف وصنف، وبلغ مرتبة الاجتهاد، وقصده

الطلاب وتخرج على يديه أئمة، وتولى قضاء مصر القدية مدة من الزمن، وقام بالتدريس في عدة بلاد، وتوفي بالقاهرة سنة 660هـ. وقد خلف لنا العز بن عبد السلام مؤلفات كثيرة منها:

1- الإلمام في أدلة الأحكام.
2- التفسير الكبير.
3- قواعد الشريعة.
4- ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام.
5- بداية السول في تفضيل الرسول.
6- الفرق بين الإيمان والإسلام.
7- قواعد الأحكام في إصلاح الأنام.
8- رسالة في التصوف.
9- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز.
10- الغاية في اختصار النهاية.
11- الفوائد في مشكل القرآن.
12- حل الرموز (تصوف).
13- مسائل الطريقة (تصوف).
14- شجرة المعارف والأحوال، وصالح الأعمال والأقوال.
15- مقاصد الصلاة.
16- مناسك الحج.

ونلاحظ في كتب العز بن عبد السلام تنوعًا وتناولًا لموضوعات مواد مختلفة، فهو قد كتب في التفسير والأصول والفقه والتاريخ والاجتماع

والتصوف، وقد كانت للدراسات الصوفية بين علـماء الأزهـر منزلـة ملحوظـة، وإذا كان العز قد أسهم في ذلك بنصيب، فإن غيره قد توسـع في هـذا الجانـب الروحي من الدراسـات الإسـلامية، كـما سـنرى في مـوطن آخـر، وهـذا التنـوع الواضح في كتب العز بن عبد السلام ينهض دليلًا آخـر عـلى أن رحـاب الأزهـر اتسعت لمختلف العلوم والفنون.

ثم نمضي مع الزمن سراعًا حتى نلمـح مـن بـين أعـلام الأزهـر شـخص أبي يحيي زكريا بن محمد بن محمود الأنصاري، الحافظ شيخ الإسلام، والذي كان يراجع السلطان وينصحه، وقد ولد سـنة ثـلاث وعـشرين وثمانمئـة، وتعلـم في الأزهر، ودرس فيه كثيراً من العلوم الدينية كالهندسة والميقات والجـبر، وتـولى منصب قاضي القضاة، وتوفي سنة 926هـ وتروي سيرته أنه صنف في كثير مـن العلـوم كالفقـه والتفـسير والحـديث، واللغـة والتـصريف والبلاغـة والمنطـق، والطب والجبر والمقابلة والهندسة والهيئة وغيرها. ومن كتبه:

1- فتح الرحمن في تفسير القرآن.
2- تحفة الباري على صحيح البخاري.
3- شرح ألفية العراقي في مصطلح الحديث.
4- فتح الوهاب في شرح الآداب.
5- غاية الوصول في الأصول.
6- شرح إيساغوجي في المنطق.
7- منهج الطلاب في الفقه.
8- تحفة نجباء العصر في التجويد.

9-   شرح شذور الذهب في النحو.

10-   اللؤلؤ النظيم في روح التعلم والتعليم.

ولم أرد أن أذكر هنا اسم جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي المولود سنة 849هـ والمتوفي سنة 911هـ والذي كان إمامًا مفسرًا حافظًا مؤرخًا أديبًا؛ لأن مؤلفاته أعظم من أن نشير إليها بكلمات عاجلة وسط هذه المسيرة، فقد ألف السيوطي ما يقرب من ستمئة مؤلف في التفسير والحديث والفتاوى، والتاريخ واللغة والأدب، والمقامات والنحو والتراجم وغيرها، وهذا القدر الضخم من المؤلفات يحتاج إلى دراسة واسعة لا إلى إشارة عابرة.

وجاء الصوفي الكبير عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعراني المصري، الذي ولد في بلدة (قلقشندة) بمصر سنة 898هـ ونشأ في قرية (ساقية أبي شعرة) بالمنوفية وإليها ينسب، ودخل الأزهر، وتعلم على يد شيخه (علي الشوني) وغيره، واتصل بالأعلام من شيوخ الأزهر، من أمثال السيوطي والأنصاري واللقاني والرملي والسمنودي، ويصور الشعراني بعبارته جانبًا من العلوم والكتب التي درسها بعد أن ترك قريته وتوجه إلى القاهرة ليدرس في الأزهر، فيقول: "ثم لما جئت إلى مصر حفظت كتاب المنهاج للنووي، ثم ألفية ابن مالك، ثم التوضيح لابن هشام، ثم جمع الجوامع، ثم ألفية العراقي، ثم تلخيص المفتاح، ثم الشاطبية، ثم قواعد ابن هشام، وغير ذلك من المختصرات، وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن من جودة الحفظ.

ثم ارتفعت الهمة إلى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة، لكونه أجمع

كتاب في مذهب الشافعي، فحفظت منه إلى باب القضاء على الغائب، وهو في أواخر الكتاب، فلقيني بعض أرباب الأحوال بباب الخرق (باب الخلق) خارج باب زويلة فقال لي مكاشفًا: قف على باب القضاء على الغائب، ولا تقضِ على غائب بشيء. فما قدرت بعد ذلك على حفظ شيء منه، لكنني طالعت الكتاب ودرسته نحو مئة مرة، وكنت أقرأ محفوظي للمتن في الشرح، وأنظر كل شيء توقفت في فهمه، حتى صار شرحه للشيخ زكريا (الأنصاري) عندي نصب عيني.

ثم لقيني الشيخ أحمد البهلول (رضي الله عنه)، فقال لي مكاشفًا: أقبل على الاشتغال بالله، ويكفيك من العلم ما قد تعلمته، فشاورت في ذلك مشايخي، فقالوا: لا تدخل طريق القوم إلا بعد شرح محفوظاتك كلها على الأشياخ، فإذا فهمتها وتبحرت فيها فعليك بطريق القوم".

وإنما سقت هذا النص من كلام الشعراني لأبين أن هذا التوجيه كان له أثر كبير في مؤلفات الشعراني الذي توفي سنة 973 بالقاهرة، فقد استجاب الشعراني لتوجيه أساتذته، وقرأ محفوظاته على خمسين شيخًا وسمع شرحها، ثم انصرف بجل عنايته إلى الدراسات الصوفية والتأليف فيها، وترك من ورائه ما يقرب من ستين كتابًا، أغلبها في التصوف والحكم والتوجيه الروحي، ومنها:

1- لطائف المنن.
2- مختصر تذكرة القرطبي.
3- مشارق الأنوار.
4- اليواقيت والجواهر.

5- مدارج السالكين.

6- منح المنة في التلبس بالسنة.

7- بهجة النفوس.

8- تنبيه المفترين.

9- الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء الصوفية.

10- البحر المورود في المواثيق والعهود.

11- الأنوار القدسية.

وقد كانت هذه الكتب سببًا في صراع عنيف وقع بين الشعراني وطائفة من علماء الأزهر حول آرائه الصوفية، وحديثه عن الشريعة والحقيقة، وهذا الصراع يصلح أن يكون موضوعًا لمقال مستقل عن (الشعراني والأزهر)، ولكنا نلاحظ أن موضوع التصوف أخذ يشغل علماء الأزهر في هذه المدة تأييدًا أو تفنيدًا، فكان هناك مثلًا من أيد الشعراني ودافع عنه، وكان هناك من عارضه وهاجمه، بل وافترى عليه.

ثم جاء أول رجل تولى مشيخة الأزهر، بعد إنشاء هذا المنصب، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخراشى المالكي، الذي ينسب إلى قرية (أبي خراش) في البحيرة، وقد ولد بالقاهرة سنة 1010هـ وأخذ العلوم عن طائفة من شيوخ الأزهر، وكان فقيها فاضلًا ورعًا، وقد توفي بالقاهرة سنة 1101هـ ومن كتبه:

1- الفرائد السنية في شرح المقدمة السنوسية.

2- الشرح الكبير على متن خليل في الفقه المالكي.

3- جزء في الكلام على البسملة.

4- الشرح الصغير على متن خليل.

ونلاحظ أن مؤلفاته يغلب عليها الاتجاه إلى الفقه المالكي؛ لأنه كان مالكيًا، ونستطيع أن نقول أن هذه المؤلفات كانت -في الغالب- لا تتخطى نطاق الكتب الأزهرية الدينية التي يدرسها العلماء لطلابهم في الجامع الأزهر.

ثم جاء العالم الشاعر الشيخ عبد الله بن محمد بن عامر الشبراوي، الذي تولى مشيخة الأزهر أيضًا، وولد سنة 1091هـ وتعلم في الأزهر، وبرز وتألق في العلم والشعر، وكان صاحب جاه ومنزلة، ومن كتبه:

1- منائح الألطاف في مدائح الأشراف.

2- عنوان البيان.

3- شرح الصدر في غزوة بدر.

4- ديوان شعر الشبراوي.

والظاهرة اللافتة للنظر هنا هي غلبة الشعر على أحد أقطاب الأزهر، بل وأحد الأعلام الذين تولوا مشيخة الأزهر، مع أن الذي كان شائعًا في الأزهر إلى عهد قريب، أن الأزهري الذي يشتغل بالأدب أو الشعر لا يفلح في تكوين نفسه علميًا وفكريًا، ولكن يظهر أن الشيخ الشبراوي قد هدم هذا الزعم منذ أكثر من ثلاثة قرون، ثم انتقل الأزهر -وخاصة في عهده الحديث- إلى عناية واسعة بالأدب والشعر، وتألق في سمائه عشرات وعشرات من الأدباء والشعراء يحتاج الحديث عنهم إلى مئات من الصفحات.

وفي السنة التي لحق فيها الشعراني بربه (تبارك وتعالى)، وهي سنة 1101هـ ولد الشيخ شمس الدين محمد بن سالم بن أحمد الحفني (أو

الحفناوى) الشافعي، وقد ولد في بلدة (حفنة) بالشرقية، وتعلم في الأزهر الشريف، وصار فقيهًا في مذهب الشافعية، وبرع في علم العروض، وقال الشعر أيضًا على قلة، وقد تولى الشيخ الحفني مشيخة الأزهر كذلك، وخلف لنا كتبًا كثيرة منها:

1- حاشية على شرح الأشموني في النحو.
2- أنفس نفائس الدرر.
3- فوائد عوائد جبرية.
4- رسالة في التقليد (في الحساب).
5- حاشية على شرح السمرقندي للياسمينية في الجبر والمقابلة.
6- حاشية على شرح العزيزي للجامع الصغير.
7- حاشية على الشنشوري في الفرائض والمواريث.
8- الثمرة البهية في أسماء الصحابة البدرية.
9- حاشية على شرح العضد للسعد (فى البلاغة).
10- حاشية على مختصر السعد في البلاغة.

ونلاحظ هنا أن عالمًا تولى مشيخة الأزهر، وكان له باعه في الدراسات الأزهرية، ومع ذلك كان يقول الشعر، وكان يؤلف في الجبر والحساب، وكان يقول الزجل العامي كما رأينا.

ثم نجد الشيخ أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهوري، المولود في دمنهور سنة 1101هـ والذي تلقى العلوم العقلية والطبية في الأزهر، وتولى مشيخة الأزهر، وكان مهيبًا عند الأمراء، قوالًا لكلمة الحق، آمرًا بالمعروف، وكان يعرف باسم (المذاهبي) لعلمه بالمذاهب الفقهية

الأربعة، وله تآليف كثيرة، وقد توفي سنة 1192هـ. ومن كتبه ما يلي:

1- الفيض العميم في معنى القرآن العظيم.
2- إيضاح المبهم من معاني السلم.
3- سبيل الرشاد إلى نفع العباد.
4- حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون.
5- منتهى الإرادات في تحقيق الاستعارات.
6- القول الصريح في علم التشريح.
7- الزهر الباسم في علم الطلاسم.
8- طريق الاهتداء بأحكام الأمة والابتداء.
9- الفتح الرباني بمفردات ابن حنبل الشيباني.
10- نهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف.
11- منهج السلوك إلى نصيحة الملوك.
12- إحياء الفؤاد بمعرفة ظواهر الإعداد.
13- عين الحياة في استنباط المياه.
14- الرقائق الألمعية على الرسالة الوضعية.

ونلاحظ في مؤلفات الدمنهوري هذا التوسع الفسيح في مختلف العلوم والفنون، فهو لا يقتصر على الموضوعات الدينية واللغوية فحسب، بل يكتب في التشريح والحساب واستنباط المياه وشؤون المجتمع وسياسة الحكم.. ويأتي الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد السجاعي البدراوي الأزهري، المتوفي سنة 1197هـ وهو من قرية (السجاعة) بالغربية، وهو فقيه شافعي المذهب، درس وأفتى وألف. ومن كتبه:

1- الدرر في إعراب السور.

2- حاشية على شرح القطر لابن هشام.

3- شرح معلقة امرئ القيس.

4- شرح لامية السموأل.

5- حاشية على شرح ابن عقيل للألفية.

6- منظومة في الاستعارات.

ثم جاء الشيخ أبو البركات أحمد بن محمد بن أحمد العدوي، المشهور بالشيخ الدردير، الذي ولد في بني عدي بمحافظة أسيوط سنة 1127هـ ورحل إلى الأزهر فتعلم فيه، وبخاصة عن الشيخين علي الصعيدي والحفني، وتألق نجمه، وتصوف وأفتى، وكان مثلًا في التعفف، وتولى مشيخة المالكية ونظارة وقف الصعايدة، ومشيخة رواقهم. وكان لا يهاب سطوة المماليك، بل يقف بجوار الشعب يقاوم مظالم الحاكمين الذين كانوا يهابونه ويعرفون مكانته الشعبية. وقد توفي الشيخ الدردير بالقاهرة سنة 1201هـ ومن مؤلفاته ما يلي:

1- أقرب المسالك لمذهب مالك.

2- تحفة الإخوان في آداب أهل العرفان.

3- رسالة في المعاني والبيان.

4- رسالة في طريقة حفص في القراءات.

5- رسالة في متشهابهات القرآن.

وللشيخ الدردير أشعار كثيرة أغلبها في التصوف وعلم التوحيد، مثل قصيدته (الخريدة السنية) وقصيدته (الخريدة البهية). ومن الأعلام

المشهورين في تاريخ الأزهر الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي، المولود في بلدة (الطويلة) بالشرقية سنة 1150هـ، وتعلم في الأزهر، وتولى مشيخة الأزهر سنة 1208هـ وفي عهده أنشئ رواق (الشراقوة). وكان الشيخ الشرقاوي عالمًا جليلًا، وزعيمًا سياسيًا، ومجاهدًا مضحيًا، وله مواقفه المشرفة في الدفاع عن حرية الشعب وكرامة الوطن، وقد توفي في القاهرة سنة 1227هـ. ومن مؤلفاته هذه الكتب:

1- مختصر مغني اللبيب في النحو.
2- التحفة البهية في طبقات الشافعية، من سنة 900 إلى سنة 1121.
3- تاريخ مصر.
4- متن العقائد المشرقية وشرحها.
5- تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من السلاطين.
6- حاشية على شرح التحرير.
7- شرح حكم ابن عطاء الله السكندري.
8- شرح الوصايا الكردية.
9- فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي.
10- مختصر الشمائل مع شرحه.

ومن المشهورين في تاريخ الأزهر، الشيخ أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي النحوي، الذي تعلم في الأزهر، وبرع في النحو، وتوفي في القاهرة سنة 1206هـ. ومن كتبه:

1- الكافية الشافعية في علمي العروض والقافية.

2- إتحاف أهل الإسلام بما يتعلق بالمصطفى وأهله الكرام.

3- أرجوزة في الفروض وشرحها.

4- حاشية على شرح الأشموني للألفية.

5- الرسالة الكبرى في البسملة.

6- إسعاف الراغبين.

7- حاشية على شرح الملوي للسلم.

8- تقرير على مقدمة جمع الجوامع.

9- حاشية على شرح الرسالة العضدية.

10- علم الهيئة.

11- رسالة في الاستعارات.

ثم جاء الأزهري الواسع الأفق، العميق الثقافة، الجامع بين علم الدين وعلم الدنيا، الشيخ حسن بن محمد بن محمود العطار المولود بالقاهرة سنة 1190هـ وأصله من المغرب، واتصل برجال الحملة الفرنسية وتعلم منهم، وتولى مشيخة الأزهر سنة 1246هـ وحاول ربط الأزهريين بالعلوم الحديثة والمعارف المختلفة، وكان شعاره: "إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها". وكان يجيد عمل المزاول الليلية والنهارية، وله رسائل في الطب والتشريح، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية، وله أشعار رقيقة، منها قصائد في الغزل، وقد توفي الشيخ العطار بالقاهرة سنة 1250. وله كتب كثيرة منها:

1- حاشية على جمع الجوامع.

2- حاشية على مقولات الشيخ السجاعي.

3- رسالة في كيفية العمل بالاسطرلاب، والربعين المقنطر والمجيب والبسائط.

4- رسائل في الطب والرمل والزايرجة والتشريح.

5- رسالة في البسملة والحمدلة.

6- إنشاء الشيخ العطار.

7- حاشية شرح قواعد الإعراب.

8- حاشية الأزهرية في النحو.

9- حاشية العصام على الوضعية للإيجي.

10- شرح المنظومة في آداب البحث.

11- شرح منظومة التشريح.

12- شرح نزهة الشيخ داود في الطب.

13- حاشية شرح أشكال التأسيس في علم الهندسة.

14- مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس.

15- ديوان الشيخ العطار.

وجاء الأزهري العبقري المكفوف الشيخ حسين أحمد المرصفي، المولود في قرية (مرصفا) بالقليوبية سنة 1815هـ، وأصيب بكف البصر وهو في الثالثة من عمره، وتعلم في الأزهر، وكان صاحب حافظة قوية وعقلية ممتازة، وقام بالتدريس في الأزهر، ثم تعلم اللغة الفرنسية في ثلاثة أشهر، وانتفع بمطالعاته في الفرنسية، وقام بالتدريس في دار العلوم ومدرسة العميان، وهي أول مدرسة من نوعها في مصر، واختير عضوًا بالمجلس الأعلى للتعليم، وكان صديقًا للشاعر محمود سامي البارودي، وكانت

بينهما مراسلات ومساجلات. وقد توفي المرصفي بالقاهرة سنة 1270هـ وقد ترجمت له ترجمة واسعة في كتابي (في عالم المكفوفين) بالجزء الثاني. ومن كتب المرصفي ما يلي:

1- الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية.
2- دليل المسترشد إلى فن الإنشاء.
3- رسالة الكلم الثمان.

ولا ننسى أن المرصفي كان أستاذًا للشاعرين الكبيرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم.

ثم جاء الأزهري النابغ الجامع بين ثقافتي الشرق والغرب: رفاعة رافع الطهطاوي، المولود بطهطا سنة 1216ه، وتعلم في الأزهر، واستكمل تعليمه في فرنسا، حينما كان إمامًا للبعثة الموفدة من مصر في عهد محمد علي، وكان له أثر كبير في النهضة العلمية والفكرية، وهو الذي أسس مدرسة الألسن، وأنشأ جريدة الوقائع، وترجم كتبًا كثيرة مؤلفة ومترجمة، وتوفي بالقاهرة سنة 1290. ومن كتبه:

1- قلائد المفاخر في غرائب عادات الأوائل والأواخر (مترجم).
2- المعادن النافعة (مترجم).
3- مبادئ الهندسة.
4- المرشد الأمين في تربية البنات والبنين.
5- نهاية الإيجاز في السيرة النبوية.
6- أنوار توفيق الجليل في تاريخ مصر.
7- تعريب القانون المدني الفرنسي.

8- بداية القدماء.

9- تاريخ قدماء المصريين.

10- التعريبات الشافية لمريد الجغرافية.

11- خلاصة الإبريز في رحلة باريز.

12- جغرافية بلاد الشام.

13- جغرافية ملطبرون.

وفي ختام هذه الجولة بين المشهورين في تاريخ الأزهر الشريف يأتي الأستاذ الإمام محمد عبده، صاحب الجهد الكبير الضخم في إحياء النهضة الأدبية والفكرية في مصر، وقد صارت سيرته أشهر من أن تكرر هنا، وقد توفي سنة 1323هـ - 1905م. ومن كتبه ما يلي:

1- رسالة التوحيد.

2- شرح نهج البلاغة.

3- الواردات في التوحيد على طريقة الصوفية.

4- فلسفة الاجتماع والتاريخ.

5- تفسير القرآن (تفسير المنار) إلى أواخر سورة النساء.

6- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني.

7- تفسير جزء عم.

8- نظام التربية والتعليم بمصر.

9- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية.

10- شرح البصائر النصيرية في المنطق.

وإنما ختمنا مسيرتنا هذه بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده؛ لأن حياته

انتهت بانتهاء القرن التاسع عشر ومبادئ القرن العشرين، وأما أعلام الأزهر في القرن العشرين بعد الأستاذ الإمام فإنهم كثيرون، ولم أحاول في مسيرتي هذه أن أستوعب الأشخاص، ولو أردت لما استطعت؛ فهناك غير هؤلاء المذكورين هنا كثيرون لهم مكانتهم ومؤلفاتهم، وكان لا بد من الاكتفاء بجانب منهم.

وكم أتمنى أن توضع دائرة معارف تحت عنوان: (أعلام الأزهر الشريف)، تضم تراجم لألوف الأزهريين الذين تألقوا في تاريخ الأزهر خلال ألف عام، وتحصي أعمالهم ومؤلفاتهم بقدر الإمكان. إن هذه أمنية تاريخية علمية، لو تحققت على وجهها لكانت خير تحية نقدمها إلى الأزهر المعمور، وإلى أرواح هؤلاء الذين توالوا على هذا المعهد الإسلامي الأكبر خلال هذه القرون العشرة.

وإني أضع هذا الاقتراح أمانة بين أيدي المسؤولين عن الأزهر، راجيًا أن يمتد العمر بالإنسان حتى تشهد عينه هذا الأمل حقيقة واقعة، وعلى الله قصد السبيل.

الأَزهر كما يصوره الجبرتي

د. عيسى عبده

الجامع الأزهر، قلعة حصينة من قلاع الإسلام، على كل من الحقيقة والمجاز. وفي تاريخه الطويل صفحات ناصعة البياض في سجل الصمود، الصمود في وجه العدوان المادي بمحاولة تقويضه وهدمه من حيث هو بناء شامخ وأرض طيبة، والصمود في وجه الحرب المعلنة أو الخفية على ما يرمز له الأزهر من الثبات على الدين الحق، وإن حاقت برجال الدين محن وآلام، يريد الله بها أن يميز بين الخبيث والطيب ليكون للصابرين المجاهدين أجرهم ضعفين: ضعف على الطاعة والعمل على رفع كلمة الله، وضعف على مغالبة المكابرين من حزب الشيطان، وما خلا منهم زمان ولا مكان، سنة الله في أرضه ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

وقد عرفت الأمة الإسلامية للأزهر الشريف هذه المكانة، وكسبت مصر باحتوائها له مكانة خاصة في العالم الإسلامي، وحرصت الأمة الإسلامية على أن يظل الأزهر حصن الدفاع عن العقيدة ومنارة الهداية، لا تسبقه بقعة في الأرض إلا ثلاث تشد إليها الرحال.

وكما عرفت الأمة الإسلامية لهذا الجامع مكانته، كذلك كانت الحال عند خصوم الإسلام، فما هادنوه. ومن السذاجة أن يطمع المرء في المهادنة عن قريب أو عن بعيد، فالحاقدون على الإسلام لا يزيدون على مر الأيام

إلا غلوًا في إثارة الحرب عليه معلنة أو خفية، ظاهرة أو مطوية في ثنايا السلوك، حتى السلوك العلمي الصادر عن علماء مشهورين (في عرف الناس وحسب؛ إذ لا قيمة لأي علم لا يهدي صاحبه إلى التوحيد). وفي هذه العجالة سأضرب مثلين، وفيهما إشارة كافية.

في دوائر المعارف:

انظر إلى دائرة المعارف البريطانية، ولها من الصيت ما لا يغيب عن المثقفين، ثم ابحث عن الأزهر في كل المظان. ابحث في كل مادة لغوية وثيقة الصلة بقلعة الإسلام: تحت كلمة معبد أو مسجد أو جامع أو بيت من بيوت الله، أو تحت الحروف الدالة على الأزهر بالذات، وستجد أن هذا المرجع الذي يطمئن إليه بعض الناس قد خلا من النص ومن الإشارة جميعًا!

ومن غريب الأمر أن تجد هيئة التحرير في هذه الموسوعة لم تجهل مكانة (الأزهري) الزعيم السوداني الراحل، ثم تقول: الأزهري إسماعيل، وتذكر عن مولده ونشاطه ومكانته ما يطيب لها أن تقوله، وبهذا تنتهي مادة الأزهر والأزهريين في عرف هيئة التحرير بدائرة المعارف البريطانية!

وقد يقول قائل إن دائرة المعارف البريطانية لا تذهب في ذكر التفصيلات إلى حد يسمح لها بوزن (الجامع الأزهر) في التاريخ الإسلامي، وفي العالم الإسلامي على تتابع أدوار القوى والتراجع في صفوف السملمين، قد يقول قائل حسن الظن بمثل ما تقدم. فنقول: انظر إلى دائرة أخرى مختصة بالدين والملل والنحل، وابحث عن الأزهر، بل ابحث عن الإسلام، وستجد ذكر الإسلام وحسب في خمس صفحات، جاء

الكاتب فيها على كل ما يظنه من الإسلام، أو من تاريخه، أو من شؤون الأمة التي اختارها اللـه جل شأنه لحمل الأمانة إلى يوم البعث. ثم وازن بين هذا التقتير الشديد بصرف النظر مؤقتًا عن سطحية المادة وأخطائها- وبين الوفرة والغنى في تفصيلات الأحداث، والأحكام التي تنسب إلى سيدنا موسى أو إلى سيدنا عيسى (عليهما السلام)، وإنك لتجد الكلام المستفيض عن (اليهود) وعن (اليهودية) وعن (المسيحية)، ثم إنك واجده أيضًا عن إسرائيل والصهيونية بإسهاب، بحيث تبلغ صفحات هذه البحوث مجتمعة بضع مئات، تقابلها عن الإسلام خمس صفحات خاويات جاهلات آثمات!

قالوا في لغة السياسة: إن السكوت وسيلة من وسائل الدفاع، وهو أيضًا وسيلة هدم؛ ولهذا حفل التاريخ بتفصيلات جمة عن حملات السكوت من النوعين. وما كان إغفال الأزهر من المراجع التي يقال عنها علمية إلا مثلًا على السلوك الحاقد على الإسلام. "يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللـهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللـهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ".

مع الجبرتي:

هذا المؤرخ العظيم (الجبرتي) عرض للأزهر الشريف في عهده، من زاوية الأحداث التي جرت وسجلها بقلمه الرصين. وكان الجبرتي على طريقته، موضوعيًا وحسب، بمعنى أنه يعرض الأحداث تباعًا دون أن يعقب من عنده بالرأي أو التقدير.

وهذا أسلوب خاص من أساليب التاريخ المعروف باليوميات، وهو أسلوب صادق أمين. وللدارس أن يعمق النظر فيما جرى به قلم الجبرتي،

وإنه ليجد بين ثنايا السطور إشارات غير معلنة، تتكفل بها الأحداث وما بينها من ترابط وثيق ثم إن لكل حادثة دلالة. وقد آثرنا أن نورد النص كما انتهى إلينا ثم نقف في آخر المقال وقفة قصيرة، لعلنا نستشف من وراء الزمان الذي انقضى على حملة الفرنسيين إلى يومنا هذا بعض العظات والعبر، وهذا فرض على المؤمنين إلى يوم يبعثون. إذ جاء في كتاب الله جل شأنه فيض من النور عن القصص وما فيه من علم نافع، قال تعالى مخاطبًا رسوله (صلى الله عليه وسلم) -وعلينا أن نتبع- "فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ". وقال (جل شأنه): "تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا"، وقال أيضًا: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ".

يقول الجبرتي في الجزء الثالث من الطبعة الأميرية من صفحة 25 - 47 تحت عنوان (إطلاق المدافع من الفرنسيين على الأزهر): "لما ظهرت غلبة الفرنساويين في القرن الثالث عشر الهجري على مصر وملكوا القلعة وغيرها، أرسل كبيرهم إلى مشايخ الأزهر مراسلة فلم يجيبوه، فعند ذلك ضربوا بالمدافع على البيوت والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وحرروا عليه المدافع والبنادق، وعلى ما جاوره من الأماكن كالغورية، والفحامين، فضج أهل تلك الجهة، ونادوا: يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.

وتتابع الرمي من القلعة وتلال البرقية حتى تزعزعت الأركان وهدمت حيطان الدور، فركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل فيكف عسكره عن الرمي، فعاتبهم في التقصير، فاعتذروا إليه، فقبل عذرهم ورفع عنهم الرمي، وقاموا من عنده ينادون بالأمان في المسالك

والطرقات واطمأنت القلوب.

ثم بعد الحادثة السابقة ثارت فتنة بين أهل الحسينية والعطوف، وبين الإفرنج وتراموا، ولم يزل الرمي بين الطائفتين حتى فرغ من الطائفة الأولى البارود، فأثخنهم الفرنج بالرمي المتتابع.

وبعد هجمة من الليل دخل الإفرنج المدينة، ومروا في الأزقة والشوارع وهدموا ما وجدوا من المتاريس وانتشروا في الطرقات وتراسلوا رجالًا وركبانًا، ثم دخلوا الجامع الأزهر راكبين على خيولهم، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وقبلته، وعاثوا بالأروقة وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا أمتعتهم، ودشتوا الكتب والمصاحف وطرحوها على الأرض وداسوها، وجردوا كل من وجدوه به وأخرجوه، وأصبحوا مصطفين بباب الجامع، وكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعًا، ونهبوا بعض الدور التي بالقرب من الجامع، وخرج سكان تلك الجهة يهرعون للنجاة بأنفسهم.

وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع، وبقي الأمر كذلك يومين قتل فيهما خلائق لا تحصى، ونهبت أموال لا تستقصى، فركب المشايخ بأجمعهم وذهبوا إلى بيت سر عسكر الفرنساوية، وطلبوا منه الأمان فوعدهم مع التسويف، وطلب منهم بيان من تسبب في إثارة الفتنة من المتعممين فغالطوه، فقال لهم على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد، فترجوا عنده في إخراج العسكر من الجامع الأزهر، فأجابهم لذلك

وأمر بخروجهم، وأسكن منهم نحو السبعين في الخطة[6] كالضابطين، ثم فحصوا عن المتهمين فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان، والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، والشيخ إسماعيل البراوي، وحبسوهم ببيت البكري[7].

ثم ركب الشيخ السادات والمشايخ إلى بيت سر عسكر، وتشفعوا في المسجونين فقيل لهم لا تتعجلوا، وبعد أيام حضر جماعة من عسكر الفرنسيس إلى بيت البكري نصف الليل، وطلبوا المشايخ المحبوسين عند سر عسكر ليتحدث معهم، فذهبوا إلى بيت قائم بدرب الجماميز، وهناك عروهم من ثيابهم وطلعوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح، ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم خلف القلعة.

رفع البيارق على منارة الأزهر:

لما توجه بونابرت إلى الشام بعد استيلائه على مصر، استولى على مدينة العريش وغزة وخان يونس، ورد الخبر إلى مصر فعمل الفرنساوية شنكًا[8]، وضربوا عدة مدافع من القلعة والأزبكية، وحضر عدد منهم راكبين الخيول وبعضهم مشاة، وعلى بعضهم عمائم بيض وعلى جماعة برانيط، ومعهم نفير ينفخون فيه، وبيدهم بيارق كانت عند المسلمين بقلعة العريش، إلى أن وصلوا إلى الأزهر واصطفوا ببابه رجالًا وركبانًا، وطلبوا الشيخ الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر، وأمروه برفع تلك البيارق على

---

(6) الخطة: مثل (الحي).

(7) بيت البكري بالخرنفش.

(8) الشنك: صواريخ الأعياد والمناسبات للاحتفاء أو لإظهار الفرح.

منارات الجامع الأزهر، فنصبوا بيرقين على المنارة الكبيرة ذات الهلالـين، وعـلى منارة أخرى بيرقًا وضربوا عـدة مـدافع بهجـة وسرورًا، وكـان ذلـك ليلـة عيـد الفطر، وعند الغروب ضربوا مدافع إعلامًا بالعيد.

قتل المجاورين وغلق الأزهر:

وفي افتتاح محرم سنة 1215هـ وقعت حادثة عجيبة، وهي أن سر عسكر الفرنساوية (كليبر) كان واقفًا في بستان داره بالأزبكية وصحبته أحد خواصـه، فدخل شخص يوهم أن لـه حاجـة وضربـه بخنجـر فـشق بطنـه وفـر هاربًـا، ففتشوا عليه حتى أخرجوه من بئر فوجدوه شاميًا، فـسألوه فـأخلط في كلامـه فعاقبوه وحرقوا يديه بالنار، فقال لهم لا تظلموا أهل مـصر، فأنـا مـن جملـة جماعة بعنا أنفسنا للموت واتفقنا على رؤسائكم، فقيل له أيـن كنـت تـأوي، فقال عند فلان وفلان برواق الشوام بالأزهر ولا يدرون حالي.

فأحضروا الشيخ الشرقاوي (شيخ الأزهر) والعريشي، وألزمـوهما بإحـضار الذين كان يأوي إليهم وهم أربعـة، ثـم ركبـوا إلى الأزهـر وصـحبتهم أغـوات الإنكشارية، وقبضوا على ثلاثة ولم يجدوا الرابع، ثـم صـبروا المقتـول وألبـسوه برنيطـة، ثـم وضـعوا معـه الخنجـر الـذي قتـل بـه، وحملـوه عـلى عربـة إلى تل العقارب حيث القلعة التـي بنوهـا هنـاك وضربـوا لـه المـدافع، وأحـضروا القاتل وخوزقوه، وضربـوا رقـاب الثلاثـة الـشوام المظلـومين وحرقـوا جثـثهم، ورفعوا رءوسهم على خوازيق بجانب المخوزق، ثم وضعوا قتيلهم في تخـشيبة ووضـعوا عنـدها عـسكرًا يتنـاوبون لـيلًا ونهـارًا، ثـم ولـوا عوضـه سر عـسكر يسمى (منو) كان بتغر رشيد، وأظهر أنه أسلم ويـسمى بعبـد اللـه، وحـضر

مع قائم مقام الأغا إلى الأزهر، وشقوا فيه وفي أروقته، وأرادوا نبش أماكن للتفتيش على السلاح. وأخذ المجاورون في نقل أمتعتهم وإخلاء الأروقة ونقلوا كتب الوقف، ثم إنهم كتبوا أسماء المجاورين في قائمة وأمروهم ألا يؤووا أفاقًا مطلقًا، وأخرجوا منه الأتراك بالكلية، وفي عصريتها توجه الشيخ الشرقاوي والمهدي والصاوي إلى سر عسكر (منو)، واستاذنوه في قفل الجامع وتسميره منعًا للريبة، فربما دس فيه من يبيت به ويفعل ما أراد، ولا يمكن الاحتراس من ذلك لكثرة دخانيق الجامع واتساع زواياه، فأذن لهم بذلك.

وسمروا أبوابه وكذا سمروا مدرسة محمد بك (أبي الذهب) المقابلة له وأخرجوا منها الأتراك، واستمرت الشدة والانزعاج إلى أن أخذ الفرنساوية في الانجلاء عن الديار المصرية. وفي محرم سنة 1216 فتح الجامع الأزهر، وكذلك المدرسة، وفرح الناس فرحًا شديدًا وهنأ بعضهم بعضًا.

عبرة الدهر:

وأي عبرة بالغة في إحداث الحملة الفرنسية على مصر وموقفها من الأزهر الشريف؟ بل أية عظات وعبر تلك التي تطاول الزمان وتعلو بصوتها الجهير على كل مستحدث من الدعوات إلى الفصل بين الدين وبين مسيرة الأمة الإسلامية نحو المكانة التي أرادها الله (سبحانه) لعباده المتقين، إذ يخاطبهم بالقول الصريح: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا".

يقولون في الأمثال: "ما أشبه الليلة بالبارحة"، وإن ما فعله المعتدون بالأزهر من مئة وسبعين عامًا، هو بعينه ما فعلته إسرائيل بالمسجد الأقصى

من عامين، لا جديـد.أمـا اقتحـام المـسجد بـالخيول أو بالمـدرعات، وأمـا قتـل الأبرياء وقصف بيوت الـلـه، فقد كان من فعل المشاة، بقدر ما وسعهم البغي والعدوان، ولكن أدوات العصر تفوقت بالقصف مـن الجـو ومـن الأرض عـلى المدى البعيد، ثم زادت من وسـائل الـدمار مـا هـو معلـن ومـا لا يـزال عـلى الكتمان، والهدف باقٍ على ما كان عليه: هو المسجد وما يتلى فيه من قرآن.

لقد فرح المسلمون حين أعيد فتح الأزهر، كما يقول الجـبرتي فـيما تقـدم من تاريخه. ولكن هـل تنبـه المـسلمون إلى الخطـر المحـدق بكـل مـسجد، لا بالأقصى وحده، ولا الأزهر وحده؟ وهل عرف المـسلمون أن مخطـط إسرائيـل يسير الهوينى، ولكن في ثبات وبهدفه خبير؟ ولقد حذرنا الـلـه كثيراً والناس في غفلة، فإذا لم يؤمنوا بالقصص الحق "فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ الـلـهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ"!

دار العلوم .. قبس من الأَزهر

د. بدوي طبانة

من الكلمات الأثيرة عند أبناء دار العلوم تلك الكلمة التي حفظوها عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وهي قوله: "إن باحثًا مدققًا لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا، لوجدها تموت في كل مكان، وتحيا في دار العلوم).

وقد أعظم من شأن هذه الكلمة، أو من شأن هذه الشهادة، منزلة صاحبها بين العلماء والحكماء، وما عرف به من صدق الرأي، وشجاعة القلب، وصحة الحكم، وسلامة التقدير.

ولنا أن نتصور ذلك العهد الذي قال فيه الأستاذ الإمام هذه الكلمة، وهو عهد فسدت فيه اللغة العربية، وهبطت إلى أدنى منازلها، فقد اختلطت فيه فصاحة العربية، بهجنة العامية، وبعجمة التركية، مع رطانات شتى من اللغات الأجنبية.

وذلك في وقت اشتدت فيه وطأة الاستعمار وضراوته في حرب اللغة العربية، ومحاولة القضاء عليها، إذ كان يعلم أنها في مقدمة مقومات هذه الأمة، وأبرز مظاهر وحدتها واتصال شعوبها. وامتحنت هذه الأمة بعدد من الذين ينتسبون إليها من الذين ظاهروا الاستعمار، ومالؤوا الأعداء فتنكروا لعروبتهم، وآثروا لغة الغريب، استعلاء على إخوانهم وبني جلدتهم، فأصبحوا يتشدقون بألفاظها ومصطلحاتها؛ إحساسًا بالضعة التي طبعوا

عليها، والنقص الذي ركب فيهم، ثم سنة المجتمعات المغلوبة في تملق المغلوب للغالب، ومحاكاة الضعيف للقوي في سلوكه، واصطناع آدابه ومظاهر حياته عن غير وعي أو بصيرة. حتى لقد أصبحت القومية في نظر هؤلاء تعصبًا، والوطنية دعوة إلى الانتكاس، والدعوة إلى التحرر والاستقلال تمردًا على الطاعة الواجبة لولي الأمر، من غير بحث في أحقيته لملك البلاد واسترقاق العباد. وعلى هذا القياس أصبح التمسك بحبال العقيدة أو بأهداب الفضيلة جمودًا، والحفاظ على اللغة والالتزام بأصولها، وسنن أصحابها في التعبير عن المقاصد والأغراض، رجعية وتخلفًا، أو تقليدًا وتكلفًا.

جامعة حرة للجميع:

فما هي (دار العلوم) التي حيت فيها لغة العرب، وكانت تموت في كل مكان كما قال الأستاذ الإمام، أو اللغة العربية التي أصبحت تحيا في كل مكان بفضل أبناء دار العلوم، تلك الكلية العريقة التي تربض في مكانها المعروف بحي (المنيرة) من أحياء مدينة القاهرة، وقد استقرت في هذا الموضع منذ سنة (1900م) بعد رحلة استمرت ثلاثين عامًا بين حي (الجماميز) وحي (الناصرية) موضع المدرسة السنية الثانوية الآن. وكان البدء في إلقاء الدروس على طلبة دار العلوم في (سراي الجماميز) في اليوم الخامس عشر من شهر صفر سنة 1288هـ (6 من مايو سنة 1871م).

وعلى ذلك تكون هذه الكلية قد قضت من حياتها المباركة أكثر من مئة عام، وهي تؤدي في صمت ووقار رسالتها الخالدة في خدمة اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية، وتصل ما غبر من أمجاد هذه الأمة في ميادين المعرفة بما جد من أصول البحث ومناهج التفكير في دراسة

علوم العقيدة وعلوم اللسان.

وكان إنشاء دار العلوم في ذلك الوقت المبكر رمزًا إلى تطلع هذه الأمة إلى النهضة وإلى تجديد المعرفة في ربوع هذه البلاد، إذ كانت في مبدأ أمرها تمثل صورة الجامعة كما ارتسمت في ذهن المصلح الكبير علي مبارك، الذي كان مديرًا لديوان المدارس والأوقاف إذ ذاك، وكان من أول ما عناه سوء حالة الكتب في مساجد الأوقاف، وهي في عهدة الجهلة من خدمة تلك المساجد، وعن طريقهم تسللت نفائس المخطوطات إلى أوروبا إذ كانوا يبيعونها بأبخس الأثمان، ويضعون أثمانها في جيوبهم، بالإضافة إلى ما كانوا يبيعونه من أوراقها للباعة والبقالين ليلفوا فيها سلعهم.واستطاع علي مبارك أن ينقذ من هذه النفائس ما نجا من أيدى هؤلاء الجهلة وجشعهم، ويغرس بها نواة (المكتبة الخديوية) التي أصبحت فيما بعد (دار الكتب المصرية)، واتخذ لها مكانًا في سراي درب الجماميز المجاورة لمسجد مصطفى فاضل باشا، وأنشأ إلى جانبها أماكن للآلات والأدوات اللازمة لدراسة العلوم الطبيعية، ثم أنشأ بجوارهما ردهة مدرجة (انفيتاتر) ليحتفل فيها بالامتحانات التي كانت تعقد في كل سنة، ويحضرها كبار رجال الدولة تشجيعًا للمتعلمين.

ويعد المؤرخون دار الكتب ودار العلوم أختين أو توءمين، فقد اقترنت نشأة كل منهما، ويشير ذلك الاقتران إلى العلاقة الوثقى بين العلم والكتاب.

فقد عز على ذلك المصلح الكبير أن تخلو هذه الردهة المدرجة من طلاب العلم بعد أيام الامتحان، فأراد أن يعيد إلى مصر مفخرة من مفاخرها التي درست، وهي (دار الحكمة) أو (دار العلم) التي أنشأها

العزيز بالله الخليفة الفاطمي، وجعل منها مكتبة ومدرسة يقصد إليها طلاب العلم في هذه البلاد ليجدوا في استقبالهم نفائس الكتب وكبار الأساتذة. ولم يبقَ أمام علي مبارك بعد إنشاء دار الكتب وإعداد المكان الصالح للدرس إلا أن يجمع الأساتذة والمدرسين، ويعد الطلبة الذين يتلقون عنهم العلوم والمعارف. وقد أعانه الله على ما أراد، وتحقق حلمه بإنشاء دار الكتب، و(دار العلوم) التي أطلق اسمها على ذلك المدرج منذ بدأ إلقاء المحاضرات به، وما زالت تحمل هذا الاسم حتى يومنا، وإن كان هذا الاسم قد زايلها في بعض الفترات في الأوراق الرسمية ليصبح (قسم المعلمين العربي) مرة، و(مدرسة المعلمين الناصرية) مرة أخرى، ولكن الاسم الأصلي (دار العلوم) بقي على ألسنة الناس كما بقي في قلوبهم.

وقد كان الطلبة الذين هرعوا إلى مدرج (دار العلوم) في أول عهدها يمثلون مزاجًا عجيبًا من طلاب العلم، وهذا يدلنا على ما كان يحس به المصريون إذ ذاك من الظمأ إلى ارتياد مناهل العلم، والسعي إليه، واغتنام كل فرصة لتحصيله، ولم يقتصر ذلك على طبقة من الناس دون غيرها من الطبقات. وكانت دار العلوم إذ ذاك أشبه بالجامعة الحرة التي تفتح أبوابها لكل طارق، فلم يكن في قانون هذه الكلية ما يحدد نوع الطالب الذي يتلقى العلم فيها أو سنه أو نوع ثقافته أو درجة هذه الثقافة، ولم يكن في قانونها ما يحجب أحدًا من أبناء الأمة عن شهود تلك المحاضرات، والإفادة مما يلقيه الأساتذة في شتى فروع الثقافة.

وقد يأخذك العجب إذا عرفت أنه كان من شهود تلك المحاضرات طائفة من أكابر العلماء، وكبار رجال المعارف أو (ديوان المدارس)

والقائمين بأمر التعليم، وكبار موظفي الحكومة، وفي مقدمتهم (علي مبارك باشا). كما كان منهم طلبة من الأزهر الشريف، ومن الفرق العالية من مدرسة الهندسة (المهندسخانة) ومدرسة المساحة ومدرسة الإدارة (الحقوق). وقد جمع بينهم حب العلم والتنافس في طلبه والاستزادة منه، يجلسون جنبًا إلى جنب، وقد أزال طلب العلم ما بينهم من فوارق المناصب والجاه والثراء.

وكذلك اختلفت ثقافات الأساتذة كما اختلفت موضوعات محاضراتهم اختلافًا بينا، إذ كان فيها محاضرات في الموضوعات اللغوية والأدبية يلقيها كبار علماء الأزهر، كما كان فيها محاضرات في أحدث العلوم والفنون يلقيها علماء أجانب أو علماء مصريون ثقفوا هذه العلوم والفنون في أوروبا. وقد تبع ذلك اختلاف لغات الحاضرين بين العربية الفصحى وما يقاربها، واللغة الفرنسية مع ترجمة ما يلقى بها إلى اللغة العربية حتى يستطيع جمهور الطلاب الإفادة مما يسمعون.

وكان من أولئك الأساتذة الكبار:

الشيخ أحمد شرف الدين المرصفي الذي كان يحاضر في التفسير والحديث.

والشيخ عبد الرحمن البحراوي الذي كان يحاضر في فقه أبي حنيفة النعمان.

والشيخ حسين المرصفي الذي كان يحاضر في علوم الأدب.

وكان من المحاضرين الأجانب:

هنري بروكس باشا ناظر مدرسة اللسان القديم، وكان يحاضر في

التاريخ العام.

وفيدال باشا ناظر مدرسة الإدارة والألسن، وكان يحـاضر في فـن الـسكك الحديدية.

وفرانس باشا المدرس بمدرسة المهندسخانة، وكان يحاضر في فن الأبنية أو العمارة.

وجيجـون بـك نـاظر مدرسـة العمليـات، وكـان يحـاضر في فـن الآلات. ومـسيو بكتيـت، وكـان يحـاضر في علـوم الطبيعيـات مـع شرح الآلات التـي استحـضرها مـن أوروبـا. وكـذلك كانـت هنـاك محـاضرات باللغـة العربيـة: في علـم الفلـك يلقيهـا إسـماعيل الفلـكي باشـا نـاظر مدرسـة المهندسـخانة. وفي علـم الطبيعيـات مـع التجـارب يلقيهـا منـصور أحمـد أفنـدي المـدرس بالمهندسخانة.

وفي علم النبات مع استحـضار الـنماذج يلقيهـا أحمـد نـدى بـك مـدرس النبات بالمدرسة الحربية ومدرسة الطب.

أهداف العلم ونظام التعليم:

ذلك هو النظام الفريد الذي ابتدأت به دار العلـوم حياتهـا العلميـة، ووجودها التاريخي. ويبـدو أن عـلي باشـا مبـارك رأى أن هـذا اللـون مـن التثقيف العام للكبار قد يكون نافلة من العمـل، قـد يكـون أوجـب منهـا بالعناية وبذل الجهود معالجة الفقر الـذي تعانيـه الأمـة في تربيـة أبنائهـا وتعليمهم، وأحس بحاجة هـؤلاء الأبنـاء إلى المهـرة المختـصين مـن المـربين والمعلمين الذين ينشرون أنوار المعرفة في ربـوع الـبلاد، ويتعهـدون الجيـل الناشئ بالتربية والتعليم والتثقيف. ورأى أن البدء بهذه الجهود ينبغـي أن

يبدأ من حيث يكون البدء، أي من الأدنى إلى الأعلى.

ولذلك رأى علي باشا مبارك أن يغير في هدفه، وأن يغير كذلك في خطتـه، فقد قـرر أن تتحـول قاعـة المحـاضرات إلى كليـة لإعـداد المعلمـين الـصالحين، فكتب على الفـور إلى شـيخ الجـامع الأزهـر إذ ذاك (الـشيخ محمـد العبـاسي المهدي)، يطلب إليه اختيار بعض العلماء الأعلام للتدريس بـدار العلـوم عـلى حساب ديوان الأوقاف، وانتخاب عـشرة مـن نجبـاء الطلبـة بـالأزهر لحـضور الدروس العربية والـشرعية بـدار العلـوم، يـربط لكـل طالـب مـنهم (خمـسة وعشرون قرشًا في كل شهر)، إعانة لهم من ديوان الأوقاف، ولهـم الحـق في أن يحضروا باختيارهم الدروس الأخرى، كما جاء في كتاب علي مبـارك إلى الـشيخ العباسي المهدي، ونص كلامه:

"وأمـا الطلبـة المـراد تعييـنهم كـما سـبق تحريـره لـسعادتكم، فـبما أن الـذي يطلـب مـنهم هـو حـضور دروس العلـوم العربيـة والـشرعية، وهـذا مقدار ساعة ونصف في كل يوم، والحالة هـذه لا يكـون في ذلـك تعطيـل عـن دروسهم بـالأزهر ولا معايـشهم. وإنمـا إذا أرادوا مـن تلقـاء أنفـسهم حـضور دروس أخرى بهذا الطرف (أي بدار العلـوم) كـدرس الفلـك أو الطبيعـة مـثلًا فيكون ذلك باختيـارهم ورغبـتهم. كـما أن كـل سـائر آحـاد النـاس، مـن أراد حضور أي درس من الدروس العامة التي صار الإعلان عنها في الوقائع المصرية فلا يمنع. ومبلغ الخمسة والعشرين قرشًا الذي تقرر ترتيبه لكـل مـن العـشرة المطلوبين ليس هو من قبيل الماهية، وإنما المراد منـه مجـرد الإعانـة فقـط. لا سيما والقصد من تعيين العشرة المذكورين هـو أنـه عنـد لـزوم (خوجـات) في بعـض المكاتـب ينتخـب مـنهم عنـد الاقتـضاء، وبوقـت ذلـك كـل مـن صـار

انتخابه منهم تقرر له الماهية اللازمة".

وظل ديوان الأوقاف ينفق على دار العلوم وطلبتها وأساتذتها وخدمتها من ميزانية (المكتبة الخديوية) حتى شهر مارس سنة 1881م. وفيه ضمت دار العلوم على ديوان المدارس (وزارة المعارف) ليقوم بدبير أمورها، ويتولى الإنفاق عليها. وكان عدد المدرسين بها إذ ذاك ثمانية تتراوح مرتباتهم بين ثلاثة جنيهات وخمسة عشر جنيهًا، وكان ناظرها إذ ذاك يتقاضى مرتبًا شهريًا قدره خمسة وعشرون جنيهًا. أما طلبتها فقد بلغ عددهم في تلك السنة 32 طالبًا يتقاضى كل واحد منهم جنيهًا واحدًا في الشهر.

وكان علي مبارك قد عني عناية فائقة بتجديد المكاتب الأهلية، التي كانت تقوم بتربية النشء في مدن مصر وقرأها، وعمل على تنظيمها وتعميمها، ورأى أن ذلك يحتاج بالضرورة إلى كثير من مهرة المعلمين الذين يقومون بواجبات حسن التربية والتعليم على الوجه الأتم، وقد لاحظ أن المشتغلين بوظيفة التعليم في اللغة العربية والتركية ليس فيهم الكفاية لذلك. ولذلك تابع جهوده المخلصة في دعم دار العلوم والعمل على استقلالها، فوضع الأنظمة والقوانين التي حدد بها نظام الكلية، وأهداف التعليم فيها، ونظام القبول بها، فقرر:

1- أن يكون عدد الذين يقبلون بهذه الكلية خمسين طالبًا.
2- ألا تقل سن الطالب عن العشرين سنة، ولا تتجاوز الثلاثين.
3- يتم اختيار الطلبة المقبولين عن طريق الامتحان التحريري والشفهي.
4- يجرى للناجحين في الامتحان (اختبار شخصي) للوثوق من

أهليتهم ولياقتهم.

5- يلزم الطلبة المقبولون بحضور جميع الدروس والمحاضرات المقررة. وكانوا قبل ذلك يحضرون ساعة ونصف الساعة في كل يوم، وكانت لهم الحرية في حضور دروس المواد الحديثة بإرادتهم.

6- يدرس لهم في (دار العلوم) الملحقة (بالكتبخانة العامرة) ما يلزم لتكميل معلوماتهم واستعدادهم لأداء وظيفة التعليم، وحسن التربية على الوجه المطلوب، والأسلوب المرغوب.

7- يربط لكل طالب مدة إقامته (تحت التعليم) مئة قرش شهريًا، من ضمن المتحصل للكتبخانة من الرسوم بديوان الأوقاف.

وعند تعيين أحد من الخريجين في وظيفة بمكتب من المكاتب (بعد تمام تعليمه، وظهور براعته في الامتحان) يربط له بدل المئة قرش المذكورة على الجهة التي يعين لها الماهية اللازمة على حسب الوظيفة التي ينتخب لها. ورأى علي مبارك أنه بهذه الوسيلة يمكن الحصول على ما فيه الكفاية من المعلمين للغة العربية واللغة التركية، ويؤخذ منهم لجهات الاقتضاء على حسب اللزوم، وبذلك يتقدم ويستقيم أمر العلم والتعليم.

وكان رحمه الله ينظر إلى المدرسين الذين يتولون تربية النشء وتهذيبه وتعليمه في زمنه، فيراهم فريقين: فريق من الأزهر الشريف يعلمون لغة البلاد وأمور الدين الحنيف، ومعظم هؤلاء يرون أن كل علم ليس في الكتب التي تلقوها في الأزهر الشريف ضلال وكفر، وأن الاشتغال به اشتغال بما لا يجدي، ويرون أن شركاءهم في التدريس الذين يدرسون الجغرافيا والكيمياء والطبيعة والفلك وغير ذلك من العلوم الكونية، هم

ملاحدة كفار.

أما الفريق الآخر، وهم إخوانهم الذين زاولوا دراسة العلوم الكونية، وعرفوا صحة نظرياتها بالبرهان القاطع والقياس المنطقي، فيرون في معلمي اللغة العربية والدين جهلًا فاضحًا، وضلالًا واضحًا، قد يدعو إلى الشك في الدين الذي يعتمدون عليه، ويدعون الاضطلاع به.

وقد أدرك علي مبارك تلك الهوة العميقة، وذلك البون الشاسع بين الفريقين، وأراد أن يتلافى ذلك الخلل، وأن يقرب مسافة الخلف بينهما، فعمل على تأسيس (دار العلوم) ليتلقى فيها طلبتها العلوم الكونية التي لا تتيسر لهم دراستها بالأزهر الشريف؛ حتى لا تكون غريبة عنهم، ويزول اعتقادهم بكفر العالمين بها، ويزدادوا نورًا على نور، وينزل الفريق الآخر عن اعتقاده الجهل فيهم.

هذا إلى ما يستفيده الأولون من أساليب دراسة العلوم المختلفة وطرق إلقائها وتلقيها؛ حتى يكون لهم ذلك نبراسًا يضيء لهم سبيل التعليم، وهاديًا يهديهم طريق الصواب في كيفية إفادتهم تلاميذهم المواد التي يزاولونها. وقد تم له بدار العلوم ما أراد[9].

أعلام في تاريخنا الجامعي:

هذه كلمات عن النشأة الأولى لدار العلوم، يتضح منها كيف كانت رسالتها تثقيفية عامة، يحتشد لها الراغبون في ألوان من الثقافات العالية من

([9]) من كلمة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار في العيد الخمسيني لدار العلوم سنة 1927م. وانظر تقويم دار العلوم للمرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد، ص18.

كل الطبقات؛ لينهلوا من علم أساتذتها الكبار. وكيف تحولت إلى كلية نظامية تحرص على مستوى أساتذتها ومستوى طلبتها، وتحدد ما يتلقون من الدروس وما يلقى عليهم من المحاضرات، وتحدد مستقبلهم ودورهم في النهوض بالوطن، وهو القيام بتربية أبناء البلاد وتعليمهم. ومن الطبيعي أن مهمة الخريجين في دار العلوم لم تقتصر على تعليم تلاميذ المرحلة الأولى، التي ظهرت الحاجة الملحة إليها أولًا، وإنما صار خريجوها يعدون أجيال الشباب في المرحلة الثانوية وفي دور المعلمين والمعلمات، وما في هذا المستوى من مدارس المرحلة المتوسطة، ثم كان منهم خيرة الأساتذة في المعاهد العليا والجامعات، منذ تأسست الجامعة المصرية الأولى سنة 1908م، ومنذ أصبحت جامعة رسمية سنة 1925م، ومنذ تعددت الجامعات المصرية فيما بعد، ولا يزالون يؤدون واجبهم إلى الآن، فقد كانوا أساتذة علوم العربية وآدابها في كليات الآداب، وأساتذة الشريعة الإسلامية في كليات الحقوق، وشاركوا في إرساء دعائم الحياة الجامعية في هذه البلاد محاضرة وتدريسًا وتأليفًا، وتخرجت على أيديهم أجيال من العلماء المختصين يعترفون بفضل هؤلاء الأساتذة، ومدى ما نهلوا من أفضالهم، وما أفادوا من علمهم. ومن هؤلاء الأساتذة:

محمد المهدي، ومحمد الخضري، ومحمد زيد الأبياني، وطنطاوي جوهري، وعبد الوهاب النجار، وأحمد ضيف، وعلي العناني، وأحمد الإسكندري، وحفني ناصف، وأحمد إبراهيم، وأحمد أبو الفتح، وأحمد الشايب، ومصطفى السقا، وعبد الوهاب حمودة، وعلي عبد الواحد، ومهدي علام، وإبراهيم سلامة، وأبو العلا عفيفي، ومحمد خلف الله، وطه أحمد إبراهيم،

وسلطان محمد، وإبراهيم مصطفى، وأحمد عبده خير الدين. وكثير غيرهم.

ومن الذين لم تقتصر خدماتهم التعليمية على جامعات مصر وحدها، وإنما تجاوزتها إلى جامعات أوروبا كثيرون، وفي مقدمتهم الأساتذة الأجلاء:

عبد الرحيم أحمد: الذي كان أستاذًا للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس.

حسن توفيق العدل: الذي كان أستاذًا بالمدرسة الشرقية في برلين، ثم أستاذًا في جامعة كمبردج.

عبد العزيز جاويش: الذي كان أستاذًا بجامعة أكسفورد.

محمد حسنين الغمراوي: الذي كان أستاذًا بجامعة أكسفورد.

محمد علي مصطفي: الذي كان أستاذًا بجامعة كمبردج.

محمد أحمد جاد المولى: الذي كان أستاذًا بجامعة أكسفورد.

أبو العلا عفيفي: الذي كان أستاذًا بجامعة كمبردج.

منصور سليمان: الذي كان أستاذًا بجامعة أكسفورد.

أحمد عبده خير الدين: الذي كان أستاذًا بجامعة كمبردج.

محمد محمود جمعة: الذي كان أستاذًا بمدرسة اللغات الشرقية بلندن.

مهدي علام: الذي كان أستاذًا بجامعة مانشستر.

أما أبناء دار العلوم الذين شاركوا في إرساء دعائم التعليم الجامعي في البلاد العربية، فهم أكثر من أن يحصوا، بالإضافة إلى عدد كبير يشاركون في النهضة العلمية في تلك البلاد، مدرسين ومديرين وموجهين منذ أكثر من أربعين سنة حتى الآن في مراحل التعليم العام.

ويذكر التاريخ الجامعي المعاصر أن ثلاثة من أبناء دار العلوم كانوا

يشغلون مناصب العمادة في كليات الآداب الثلاثة بالجامعات المصرية في وقت واحد، فكان المرحوم الدكتور إبراهيم سلامة عميدًا لآداب القاهرة، والدكتور مهدي علام عميدًا لآداب عين شمس، والأستاذ محمد خلف الله عميدًا لآداب الإسكندرية، وفي الوقت نفسه كان الأستاذ إبراهيم اللبان عميدًا لكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

وإذا كنا قد أشرنا إلى شيء مما قام به أبناء دار العلوم، في ميدان التعليم العام والتعليم الجامعي في مصر وفي غيرها من البلاد العربية والبلاد الأوروبية، فلن تفوتنا الإشارة إلى شيء من جهودهم في الكتابة والتأليف العلمي والأدبي، وقد فاقت ما كان مقدرًا لها، بما جددوا وابتكروا وبما ترجموا من آثار الفكر الإنساني في اللغة والأدب، وفي المنطق والفلسفة، وفي التاريخ وعلم الاجتماع، وفي التربية وعلم النفس، وبما حققوا من تراث العرب، وأحيوا من دارسه. فأعادوا العربية إلى عصورها الذهبية، وأثروا المكتبة العربية بالدراسات الأصيلة والبحوث النافعة العميقة، واستطاعوا أن يرجعوا إلى متون اللغة ليتخيروا منها لكتاباتهم، وما يلقنونه لتلاميذهم.

فنهضوا بأساليب التعبير، وقووا في تلاميذهم ملكة الإنشاء والقدرة على التعبير، وعكفوا على أصول النحو والصرف فحلوا مشكلاتها، وأجلوا غوامضها، وصاغوها صياغة جديدة قربتها إلى أفهام التلاميذ، وتدرجوا بها مع النمو العقلي لتلاميذهم، وجارَوا بها تنقلهم في مراحل التعليم المختلفة، وعمدوا إلى كتب البلاغة فاستخرجوا زبدتها وقربوها إلى الأذواق، بما يسروا من غامضها، وخففوا من مصطلحاته، وحببوا إلى تلاميذهم قراءة الأدب وتذوقه، واستخلاص ما حوى من الخصائص الفنية

والجمالية، وأعانوهم على نقده وتقويمه.

تجديد منهج الدرس الأدبي:

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نذكر صنيع رجل من خير من خرجت دار العلوم، ومن أبر من حملوا رسالتها في خدمة اللغة والأدب في صمت الحكماء، وفي تواضع العلماء، وفي بعد عن الجلبة والدعوى التي يصطنعها الأدعياء في هذا الزمان.

ولعل أكثر المعاصرين لا يعرفون أن دراسة التاريخ الأدبي للأمة العربية، على هذا النحو الذي يدرسونه به في هذا الزمان في المدارس والجامعات، مدين بوضعه وابتكاره لرجل من أبناء دار العلوم الأوفياء، وهو المرحوم (حسن توفيق العدل). فقد كان درس الأدب يقوم على المنهج التقليدي المألوف في الآثار القديمة كالذي نجده في كتاب (الكامل) لأبي العباس المبرد، وهو منهج يقوم على الاستطراد في رواية النصوص الأدبية، وشرح غوامضها، وتوضيح ما حوت من الإشارات التاريخية، والفوائد اللغوية، والقواعد النحوية، والنكت البلاغية. وكان في ذلك ما فيه من المشقة على الدارسين الذين يعز على أكثرهم تخليص الحقائق وتحديدها، ويصعب عليهم تجميع عناصر موضوعاتها. وعلى هذا النحو أو ما يقرب منه ألف الشيخ حمزة فتح الله كتابه (المواهب الفتحية) وألف الشيخ حسين المرصفي كتابه (الوسيلة الأدبية).

ولكن المرحوم حسن توفيق العدل نهج نهجًا جديدًا هو النهج الذي لا يزال يدرس الأدب على أساسه، وذلك أنه عمد إلى الحياة الأدبية عند العرب فقسمها إلى فترات أو عصور زمنية حددها بكبريات الأحداث في

تاريخ هذه الأمة، وجعلها خمسة عصور تبتدئ بالعصر الجاهلي، وتنتهي بعصر النهضة الحديثة، ثم درس الحياة الأدبية في كل عصر، مقدمًا لها بدراسة العوامل المؤثرة في حياة الأدب، ومعرفًا بأشهر أعلامه، وعارضًا نماذج من أدبهم المنظوم أو المنثور.

وتتابعت الدراسات الأدبية على هذا النحو وكان ذلك ثمرة من ثمرات عكوفه على الآداب الأوروبية ومناهج دراستها في الفترة التي قضاها في أوروبا.

تسمية المسميات الحديثة:

ومما يتصل بجهود أبناء دار العلوم ونشاطهم في خدمة اللغة العربية والنهوض بها (نادي دار العلوم) الذي أنشاؤه ليكون ملتقى لهم، ومعرضًا لآرائهم الحرة في موضوعات تتصل برسالتهم، وقد لا تتسع لها حجرات الدروس وقاعات المحاضرات. وقد افتتح ذلك النادي في شهر نوفمبر سنة 1907م، وكان أول رئيس له هو المرحوم حفني ناصف، وكان إذ ذاك قاضيًا بمحكمة الأزبكية، وكان ذلك النادي أشبه بمجمع لغوي. وقد قال فيه جرجي زيدان: "كانت تلقى فيه الخطب، وأكثر بحوثه في اللغة ومصطلحاتها. وقد وضع أعضاؤه بضعة آلاف لفظة اصطلاحية جديدة نشر بعضها في مجلة كانت تصدر باسم النادي".

وقد عرض رجال ذلك النادي في جملة ما عرضوا له من الموضوعات ذات الخطر في حياة اللغة العربية لموضوع (التعريب) وقد دارت حول هذا الموضوع مناقشات علمية رائعة تدل على الوعي الصحيح، والتقدير لظروف اللغة، ووسائل نمائها، وقدرتها على مواجهة مطالب الحياة المتجددة. فإذا عدونا خدمة اللغة والأدب، وخدمة التربية والتعليم التي

أجاد فيها أبناء دار العلوم وأفادوا، وكان لهم فيها القدح المعلى، حتى أصبحوا علمًا عليها، وإذا عدونا كذلك من خرجت دار العلوم من فحول الشعراء والخطباء وأصحاب الأقلام، ومن رجال الوطنية والإصلاح الاجتماعي ممن لا تتسع لهم هذه السطور، إذا عدونا هؤلاء وهؤلاء ألفينا عددًا من خريجيها يبرعون في الثقافة القانونية، ويصلون بجدهم وإخلاصهم وكفايتهم إلى أرفع مناصب القضاء الأهلي والشرعي، ومنهم المرحومون حسن جلال المصري (باشا) الذي كان مستشارًا بمحكمة الاستئناف، ومحمد عبد الفتاح (بك) الذي عين وكيلًا للنيابة ثم قاضيًا، ومحمد صالح (باشا) الذي رأس كثيرًا من المحاكم الأهلية ثم عين مستشارًا بمحكمة الاستئناف، وعبد الرحمن إبراهيم (باشا) الذي كان وكيلًا لمحكمة النقض والإبرام، وحفني ناصف (بك)، وعبد الرحيم أحمد (بك)، ومصطفى الخولي (بك)، وغيرهم، بالإضافة إلى أبنائها الذين شغلوا مناصب القضاء الشرعي، وزاولوا صناعة المحاماة، وفي طليعتهم النقيبان محمد عز العرب (بك)، وعبد الرازق القاضي (بك).

هذه دار العلوم التي أسهمت بنصيب واضح في بناء نهضة مصر ولغتها وأدبها، وتجاوزت رسالتها هذه الحدود إلى تلك الآفاق البعيدة مع صعوبة المسلك ووعورة الطريق. فقد قاست هذه الكلية طوال حياتها ألوانًا من الصراع العجيب، وكانت لا تخرج ظافرة من معركة إلا ابتلتها الأقدار بمعركة أخرى. وقد كتب الله لها البقاء والنصر على جميع القوى التي تصدت لها، فكانت بذلك آية الآيات في مجالدة الزمن ومقارعة الخطوب، ومن المعارك الرهيبة التي خاضتها دار العلوم:

_ معركة مع الرجعية والتخلف، فقد دعا أنصارهما إلى مناهضة هذه الكلية، وهي لم تزل تستقبل حياتها العلمية بدعوى أنها تعلم طلابها علوم الطبيعة والحياة وسائر العلوم الحديثة، وكان تلقي هذه العلوم إذ ذاك كبيرة من الكبائر؛ إذ كانوا يعدون ذلك خروجًا على الدين، وضربًا من الزندقة والإلحاد. واضطر أساتذتها وطلابها للدفاع عن كيانهم بتبصير الناس بمزايا هذه العلوم التي تعين على الإيمان، والتعرف على آيات الله.

_ معركة مع الاستعمار وأعوانه، الذين نظروا إلى هذه الكلية نظرة توجس وحذر، باعتبارها حصنًا للعربية، ومنارًا للقومية، ولأن أبناءها ينتشرون في طول البلاد وعرضها، وينشرون العلم والنور بين أبناء الأمة في جد وصدق. ومن هنا بدأ التضييق على خريجيها، فحيل بينهم وبين المناصب الرفيعة في وزارة المعارف، وسن (دنلوب) المستشار الإنجليزي والمصرف الحقيقي لشؤون التربية والتعليم سنة الفصل بين أبناء دار العلوم ونظرائهم من خريجي المعاهد الأخرى في المناصب والدرجات، فشبت بذلك نار الفتنة بين أبناء البلد الواحد الذين يتعاونون على أداء خدمة وطنية واحدة.

ولكن هذه الخطوب كانت من أهم العوامل في تطوير دار العلوم وتجديد نشاطها العلمي على مر الزمان، ولا سلاح لها إلا العمل المؤمن الجاد.

وبعد، فهذه كلية دار العلوم التي صمدت في وجه الخطوب، وكتب الله لها الحياة والبقاء، كما تعهد رسالتها بالبركة والنماء حتى أصبحت إحدى مفاخر جامعة القاهرة، وواسطة العقد بين كلياتها العاملة، تتابع دورها في أداء رسالتها الخالدة.

وقد كانت ولا تزال جديرة بتحية أمير الشعراء أحمد شوقي لها في عيد

من أعيادها الماضية سنة 1927، بقصيدة من قصائده الجياد منها قوله مشيدًا بجهودها العربية والإسلامية، وبآثارها في الحفاظ على اللغة العربية الفصحى:

وجمعت السعادتين فباتت فيك دنيا الصلاح للدين خدنا

لو تسترت كنت كالكعبة الغراء ذيلًا من الجلال وردنا

إن تكن للثواب والبر دارًا أنت للحق والمراشد مغنى

يا عكاظًا حوى الشباب فصاحًا قرشيين في المجامع لسنا

فتية محسنون لم يخلفوا رجاء ولا المعلم ظنا

كلما سار للكهولة شعري أنشدوه فعاد أمرد لدنا

أَديب من الأَزهر .. مصطفى لطفي المنفلوطي

د. أحمد هيكل

كان امتدادًا كريمًا لهذه السلسلة المباركة من رجالات الأزهر، الذين أسهموا بجهود ميمونة في صنع تاريخنا الحديث، من أمثال رفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده. ومثل الشيخين الرائدين المصلحين حرص المنفلوطي على ألا تقتصر جهوده على الميدان الثقافي وحده، بل أبى إلا أن يسهم في الميدان السياسي والإصلاحي أيضًا؛ ولذا نراه قد وظف أدبه بالتزام مبكر لخدمة وطنه وترقية أمته، أو بتعبير أشمل: للنضال من أجل شعبه.

كانت البلاد في تلك السنوات ترزح تحت نير الاحتلال البريطاني، الذي جثم على صدر مصر سنة 1882، والمنفلوطي صبي قد بلغ من العمر نحو خمس سنوات، فعاش بقية صباه وكل شبابه وجل كهولته يتجرع مرارة هذا الاحتلال الكريه. وكان يساند الاحتلال في تلك السنوات خديو مصر، الذي أخذ يتغير لقبه فأصبح سلطانًا ثم ملكًا، ولكن حقيقته لم تتغير، كحاكم غريب عن تلك البلاد، كل همه أن يعيش سيدًا، وأن يؤازر من يساندون عرشه الذي تزعزعه دائمًا حركات الوطنيين الشرفاء.

وهكذا كان هناك اتفاق مصالح بين قوى الاحتلال وقوى القصر، وبخاصة بعد أن ثبت استدعاء الخديو توفيق للإنجليز، وضربه بهم لقوى الشعب الممثلة في الثورة العرابية. وظل هذا الاتفاق يتضح حينًا ويخفى حينًا آخر، ولكنه بقي حقيقة لا يمكن إنكارها لأنها موجودة أبدًا. وقد كان من الفترات التي شهدت خفاء هذا التآمر بين الاحتلال والقصر، تلك السنوات الأولى من عهد عباس حلمي الملقب بعباس الثاني. وذلك أن هذا الخديو حين جلس على العرش بعد توفيق، أراد أن يكسب المواطنين بإيهامهم أنه غير سلفه، وأنه في جانب الوطنيين لا في صف المحتلين.

ولتأكيد هذا الإيهام أخذ يقرب بعض الزعماء، كما راح يزور البلاد، ويبذل كثيرًا من المحاولات لكسب ثقة أبناء الشعب، لكنه ما لبث أن ظهر على حقيقته فعادى الحركة الوطنية، ونفذ رغبات الاحتلال، ووقف نهائيًا في صف أعداء الشعب. ثم تتابعت الأحداث، واشتدت حركة المقاومة الوطنية حتى تمثلت في ثورة سنة 1919، التي قادها سعد زغلول مكملًا رسالة مصطفي كامل، الذي قاد الحركة الوطنية في أول شبوبها عقب الاحتلال.

وانتهت ثورة سنة 1919 ببعض المكاسب التي تعتبر خطوة على طريق العمل الوطني، والتي في مقدمتها: صدور الدستور، وافتتاح البرلمان، وتأليف حكومة وطنية برياسة سعد زغلول سنة 1924، وأن كانت الفرحة بهذه المكاسب لم تَطُل؛ نظرًا لتآمر الإنجليز والقصر على كل ما ربحه الشعب من ثورته. وهذا التآمر لا يتسع له هذا الحديث الذي قصدنا من التمهيد به مجرد تحديد للعصر الذي عاش فيه المنفلوطي وتأثر به وأسهم

في النضال بأدبه فيه. وهذا العصر الذي ينتمي إليـه المنفلـوطي ينتهـي بهـذه المرحلة من تاريخ مصر؛ لأن الرجل انتقل إلى جوار الـلـه سنة 1924.

ولد المنفلوطي بمنفلوط (إحدى بلدان صـعيد مـصر) سـنة 1876، وحـين بلغ سن التعلم تردد على الكتاب فحفـظ القـرآن الكـريم، وتعلـم مـا يؤهلـه للالتحاق بالأزهر، ثم انتقل إلى القاهرة، ودخل الأزهر، وحـضر دروس الـشيخ محمد عبده. ولكنه اهتم بصفة خاصة بالأدب، فأخذ يقرأ روائع كتب التراث، وجيد مراجع الأدب العربي شعر ونـثره، حتـى غلبـه حـب الأدب عـلى نفـسه، فترك الأزهر بعد دراسة فيه استمرت نحو عشر سنين.

وكان المنفلوطي قد اتجه إلى الكتابة في الصحف متـأثرًا بأسـتاذه محمـد عبده، ومستفيدًا من توجيهه. وبرز اسمه حين أخذ يكتب في صـحيفة المؤيـد، التي كان يـصدرها الـشيخ عـلي يوسـف منـذ سـنة 1889، والتـي كانـت مـن كبريات الصحف الوطنية والإصلاحية ذات النزعة العربية الإسلامية.

وفي أول عهده بالأدب، كان المنفلوطي يكتب الشعر، وكـان يـسهم بهـذا الشعر كما يسهم بالنثر في النضال، وقد بلغت به الشجاعة أن هاجم بقـصيدة من قصائده الخديو عباس الثاني، بعد أن اتـضح للمنفلـوطي موقـف الخـديو وخداعه للشعب.

وقد وزعت هذه القصيدة في منـشور يحمـل اسـم (الـصاعقة)، بمناسـبة حضور الخديو إلى القاهرة قادمًا من الإسـكندرية، بعـد رحلـة داخليـة كانـت جريـدة المؤيـد تعنـي برصـدها ووصـف الاحتفـالات بهـا. وتـاريخ توزيـع هذه القصيدة في منشور هو 4 نوفمبر سنة 1897، وهـو اليـوم التـالي لعـودة

الخديو، وهذه هي القصيدة:

قـدوم ولكـن لا أقـول سـعيد   وملك -وإن طال المـدى- سيبيد

بعدت وثغر الناس بالبشر باسـم   وعدت وحـزن في الفـؤاد شـديد

تمـر بنـا لا طـرف نحـوك نـاظر   ولا قلب من تلك القلـوب ودود

عـلام التعـاني؟ هـل هنـاك مـآثر   فنفرح؟ أو سعي لـديك حميـد؟

إذا لم يكن أمـر ففـيم مواكـب؟!   وإن لم يكن نهي ففـيم جنـود؟!

تــذكرنا رؤيــاك أيــام أنزلــت   علينا خطوب من جدودك سـود

رمتنـا بكـم (مقـدونيا) فأصـابنا   مـصوب سـهم بـالبلاء سـديد

فلـما تـوليتم طغيـتم، وهكـذا   إذا أصـبح الـتركي وهـو عميـد

فكـم سـفكت منـا دمـاء بريئـة   وكم ضـمت تلـك الـدماء لحـود

وكم ضم بطن البحر أشلاء جمـة   تمـزق أحـشاء لهـا وكبـود!

وكـم صـار شـمل للـبلاد مـشتتًا   وخـرب قـصر في الـبلاد مـشيد

وسيق عظـيم القـوم منـا مكـبلًا   لـه تحـت أثقـال القيـود وئيـد

فما قـام مـنكم بالعدالـة طـارف   ولا سـار مـنكم بالـسداد تليـد

كـأني بقـصر الملـك أصـبح بائـدًا   من الظلم، والظلـم المبـين مبيـد

وينـدب في أطلالـه اليـوم ناعيًـا   لـه عنـد ترديـد الرثـاء نـشيد

أعبـاس ترجـو أن تكـون خليفـة   كـما ود آبـاء ورام جـدود؟!

فياليـت دنيانـا تـزول وليتنـا   نكون بـبطن الأرض حـين تـسود

وقد حوكم المنفلوطي -وهو في نحو العشرين- بسبب تلك القصيدة التي لا يقولها إلا فنان فدائي، وحكم عليه بالسجن اثني عشر شهرًا، وحين استأنف الأديب الحكم ونظرت القضية من جديد، خفف السجن إلى ستة أشهر.

تطوير النثر الحديث:

وقد عانى المنفلوطي كثيرًا بسبب هذه العقوبة، وظل بعد تنفيذها مبعدًا عن أي عمل حكومي، باعتباره غير متمتع بالصلاحية للوظائف لما في تاريخه من سابقة!

ولكن مسعى كريمًا من الشيخ محمد عبده أعاد إلى الرجل بعد حين حقوقه الشخصية، وحين تولى سعد زغلول نظارة المعارف سنة 1906 عين المنفلوطي في وظيفة تتفق ومواهبه الأدبية، وهي وظيفة المحرر العربي بوزارة المعارف.

وكان سعد يعتز بالمنفلوطي ويعرف قدره في المجال الوطني والأدبي على السواء؛ ولذا نراه يتمسك به ويتصدى للمستشار الإنجليزى (دنلوب) حين حاول فصل المنفلوطي من وزارة المعارف؛ عقوبة له على هجومه على (روزفلت) الذي كان قد زار مصر، وأنكر حق المصريين في الاستقلال، فرد عليه المنفلوطي بمقال تحت عنوان (محاكمة روزفلت أمام محكمة العدل). وقد كان مما قاله سعد لـ(دنلوب) وهو يدافع عن المنفلوطي: "إن الحكومة في حاجة إلى مثل السيد مصطفى، وليس هو في حاجة إليها، والوظائف قبور للأدباء، وخير للحكومة أن يكون مثله داخلها".

وبلغ من اعتزاز سعد بالمنفلوطي أنه كان ينقله إلى حيث يعمل، فحين

عين وزيرًا للحقانية سنة 1910، نقل المنفلوطي معه، وأنشأ لـه تلـك الوظيفـة التي أنشأها له من قبل في وزارة المعارف. وحين انتخب سعد وكيلًا للجمعيـة التشريعية سنة 1912، أخذ المنفلوطي ضمن هيئة الأمانة. وبقي في الجمعيـة التشريعية حتى تأججت الثورة، وكتب مقالاته في القضية المصرية سـنة 1921 مدافعًا عن سعد باشا ومنتصفًا لـه مـن خـصومه الـسياسيين، وحينئـذ فـصله ثروت باشا من وظيفته، ثم صودر كتابه (النظرات) الذي كان يضم مجموعـة من تلك المقالات.

وبعـد نحـو سـتة أشـهر رؤي اسـتدراج الرجـل وكـسبه في صـف القـصر وأعوانه، من مناوئي الحركـة الثوريـة أو المتـاجرين بهـا، فعـين في (سـكرتارية) الـديوان الملـكي عـلى أمـل أن يكـف عـن الكتابـة الوطنيـة والنـضال بالكلمـة الشريفة. ولكن الرجل ظل على ما كان عليه مـن قبـل، فـأخرج مـن وظيفتـه بالديوان بعد قليل، والحق بوظيفته بالجمعيـة التـشريعية المعطلـة، وظـل في هذه الوظيفة التي هـي أشـبه بالتعطـل، إلى أن جنـى الـشعب بعـض ثمـرات ثورته، وأسندت رياسة الوزارة إلى سعد زغلول، وافتتح البرلمـان، وتولـت قـوى الشعب الوطنية الحكم، فحينئذ عين المنفلوطي رئيس فرقة في أمانـة مجلـس الشيوخ، وبقي في هذا المنصب إلى أن مات سنة 1924.

وقد قام المنفلوطي بأعظم دور في تطـوير النـثر العـربي الحـديث، وإليـه يرجع تخليص هذا النثر نهائيًا مما كان يتردى فيه مـن تفاهـة وركاكـة، رانـت عليه طيلة عصور التخلف، وبخاصة في العهـد الـتركي، الـذي امتـد نحـو ثلاثـة قرون. فقد أفاد المنفلوطي مـن روح الفـترة التـي عاشـها، ومـن اتجـاه الفـترة السابقة على فترته، حيـث كانـت هنـاك حركـة أحيـاء لروائـع الـتراث العـربي

الذي خلفته عصور الازدهار، وكانت تلك الحركة نتيجة لهـذا الـوعي العميـق بالماضي العربي المجيد، الذي يمكن أن يكون ركيزة لمستقبل رائع جديد. كـذلك أفاد المنفلوطي من توجيهات أسـتاذه محمـد عبـده، الـذي دعـا بـإخلاص إلى تخليص النثر العربي من الزخارف والصنعة، وطالب الكتاب وبخاصة من كانوا تلاميذه أو عاملين معه، أن يترسلوا فيما يكتبون، وأن يتجهوا وجهة فنية جادة فيما يسطرون.

أصالة وطابع خاص:

ومن استيعاب المنفلوطي لروائع التراث النثري المترسل الذي سطره كبـار الكتاب في عصور الازدهار، ومن توجيهات الأستاذ الإمام، ومن موهبـة الرجـل وأصالته، خـرج بطريقـة في الكتابـة تعتـبر المدرسـة الأم لكـل المـدارس الفنيـة الأسلوبية في الكتابة العربية الحديثة.

وأهم معالم هذه المدرسة الأم: البعد عن التكلـف، والنـأي عـن التقليـد، والقصد إلى الـصدق، والاهـتمام بالـصياغة، وجـمال الإيقـاع، ورعايـة الجانـب العاطفى، ثم الميل إلى السهولة والترسل، وترك التعقيد والمحسنات، فـيما عـدا بعـض الـسجع المطبـوع الـذي يـأتي بـين الحـين والحـين للإسـهام في موسـيقى الصياغة.

وقد كانت طريقة المنفلوطي - بـرغم محافظتهـا واتخاذهـا النـثر الجيـد القـديم مـثلًا أعـلى - طريقـة إبداعيـة في كثـير مـن جوانبهـا، ففيهـا أصـالة المنفلوطي وعليها طابعه، وكل ما كتب بها موضوعات حية هـي مـن تجـارب الكاتب المرتبطة بنفسه وقومه وعصره، فهـي طريقـة في النـثر أشـبه بطريقـة شوقي في الشعر، فيها محافظة من حيث اتخاذ القـديم الجيـد مـثلًا أعـلى في

الصياغة، وفيها تجديد مـن حيـث تطـوير الأديـب وإضـافاته، واتخـاذ الإطـار البياني المحافظ وسيلة للتعبير عن مـشاعره هـو، وتجاربـه هـو، وعـصره هـو، بحيث تتـضح شخـصيته كـأجلى مـا تكـون، وتظهـر المعـاصرة في أسـلوبه فـلا تخطئها ألا عيون المكابرين.

وأهم آثار المنفلوطي التي تتمثل فيها طريقته: مقالاته التي جمـع كثـيرًا منها في كتابه (النظرات)، والتي تعالج موضوعات سياسية واجتماعية وأدبيـة، ثم كتاباته القصصية، التي بعضها موضـوع وبعـضها معـرب، وبعـضها أعـمال قصيرة كتلك التي جاءت في (العبرات)، وبعضها أعمال طويلة مثـل (الفـضيلة) و(مجدولين) و(الشاعر) و(في سبيل التاج). وهذه الكتابـات القـصصية كانـت تترجم أولًا بـأقلام بعـض المترجمـين، ثـم يأخـذها المنفلـوطي فيعيـد صـياغتها بطريقته مع ألوان من التصرف تكاد تجعلها جديدة. وهكذا عرف المنفلـوطي كناثر صاحب طريقة، وأعمل الشعر مكتفيًا بريادته لتلك الطريقة الفنية التي عرفت به، وأحدث بها في تاريخ النثر العربي وثبة كبرى.

وكانت مقالاته وكتاباته القصـصية موضـع حفـاوة الجيـل التـالي لجيلـه، ممن كانوا على أول طريق الأدب أيام كان هو ذائع الصيت واضـح الطريقـة، حتى لقد قرر الأستاذ الزيات، أنه هـو وصـاحبه طـه حـسين ورفـيقهما زنـاتي، كانوا ينتظرون مقال المنفلوطي بشوق شديد، كما كـانوا يقبلـون عـلى قراءتـه بشغف بالغ. ومن هنا رأينا كلا من الكـاتبين الكبـيرين يأخـذ وجهـة أسـلوبية جمالية فيما يكتب، وهما وإن انفرد كل منهما بطريقة خاصة نتيجـة لأصـالته وثقافته، فقد خرجا أولا من جبـة المنفلـوطي الـذي وجههـما وجهـة أسـلوبية جمالية، حتى أصبحا من كبار الكتاب الأسلوبيين.

مدرسة المرحلة الأولى:

وقد عيب على طريقة المفلوطي الاهتمام الشديد بالأسلوب، والفقر في الجانب الفكري، والمبالغة في اصطناع الأسى وإثارة العاطفة، ثم عدم الدقة في الاستعمال اللغوي أحيانًا، والميل إلى حشد المترادفات، والعبارات المكملة، والكلمات المؤكدة. وربما كان الكثير من ذلك حقًا، ولكن الحق أيضًا أن الكتابات التي خلفها هذا الكاتب بطريقتها الفنية، كانت أول اتجاه أسلوبي فني حديث، رد إلى النثر اعتباره، وجعل ينافس الشعر، وخرج آخر الأمر أعلام الكتاب الأسلوبيين، الذين يفخر بهم تاريخ أدبنا الحديث، كالزيات وطه حسين وغيرهما.

ولا يزال المنفلوطي يعيش بفنه إلى اليوم، برغم ما طرأ على أدبنا من تطورات وما جد فيه من اتجاهات، ولا يكاد يشذ أديب - بعد جيل المنفلوطي - عن التلمذة على هذا المعلم الرائد.

حقيقة لا يكتفي أي أديب بالوقوف عند مرحلة كتابات المنفلوطي وهو يتعلم الأدب، ولكنه لا يمكن أن يتخطى تلك المرحلة دون أن يقف عندها. فكتابات المنفلوطي - في أقل تقدير - بمثابة مدرسة المرحلة الأولى لكل من يريد أن يتعلم فن الكتابة، ولا بد من أن يعيش المتعلم حينًا على عطائها رائع السذاجة، طفلي الروح، ثم يعبر منها إلى مراحل أخرى أكثر نضجًا وأبعد عمقًا.

وإن من الوفاء لأدبنا الحديث أن نذكر رواده الذين عبدوا الطريق كالمنفلوطي. وإن من مظاهر هذا الوفاء المسعد أن يلتفت بعض شبابنا الجامعي الواعي إلى دراسة المنفلوطي والعناية بأدبه، وفي هذا الميدان يطيب

لي أن أنوه بالباحث الجاد (الدكتور محمد أبي الأنوار) الذي جعـل المنفلـوطي وأدبه موضوع رسالته للماجستير، والذي جمـع بعـد ذلـك مـن نـصوص أدبـه كثيراً مما لم ينشر، وبخاصة هـذا الـشعر الـذي خلفـه المنفلـوطي متنـاثرًا بـين صحف عهده.

وقد أفدت كثيرًا مما جمع هذا الباحث الدقيق، الذي قدم إلي طائفة من النصوص والحقائق بسخاء نفس يستحق أطيب الثناء.

رحم الـلـه المنفلوطي، وجزاه عن لغتنا وأدبنا ووطننا وتاريخنا الحضاري الحديث أكرم الجزاء.



حسن العطار .. شاعر من الأَزهر

الاستاذ/ عبد العزيز الدسوقي

لم يُتَح لى أن أقف بنفسي على الظواهر الأدبية والفنية في مصر عبر القرنين السابع عشر والثامن عشر، وربما النصف الأول من القرن التاسع عشر، وإنما كنت أكتفي بالأحكام التي انتهى إليها الدارسون من قبلي، وأردد أقوالهم عن شعراء هذه الفترة وأدبائها، وكانت في أغلبها أحكامًا قاسية، تتسم بطابع التعميم، فالأدب في هذه الفترة أدب متخلف منحط، والأدباء والشعراء نظامون، أسلوبهم ركيك ولغتهم رديئة، وصورهم الشعرية باردة لا ماء فيها ولا رواء، إلى آخر هذه الأحكام التي ظللت أرددها، حتى طلب إلى الصديق الشاعر صالح جودت أن أكتب عن شاعر من الأزهر، واختار لي الشاعر (حسن العطار). وبدأت أتعرف على تاريخ الرجل وخلفيته الثقافية، قبل أن ألج عالمه الفني.

عجائب وغرائب:

وهالني أن أجد تاريخ الرجل حافلًا بالعجائب والغرائب، فهو أستاذ رفاعة الطهطاوي رائد الفكر الحديث في مصر، وهو الذي اختاره إمامًا لأول بعثه أرسلها محمد علي إلى فرنسا، ويحدثنا رفاعة الطهطاوي إن أستاذه العطار هو الذي طلب إليه قبل رحيله إلى فرنسا أن يدون انطباعاته ومشاهداته في تلك البلاد، فسجلها في كتابه (تخليص الإبريز).

ويقول عنه: "كان للشيخ حسن العطار حظ في العلوم العصرية حتى العلوم الجغرافية، وأنه وجد بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء، وهوامش أخرى على أكثر كتب التاريخ وطبقات الأطباء وغيرها، وكان يطلع على الكتب المعربة، وله ولع شديد بسائر المعارف البشرية، وله بعض تآليف في الطب وغيره".

وبدأت اتشكك في الأحكام السابقة التي كونتها بصفة خاصة عن (حسن العطار)، فرجل بمثل هذه التجارب الثقافية الواسعة لا يمكن أن يكون متخلف التفكير، ولا يمكن أن يكون أدبه بهذا الوصف الظالم الذي كنت أنعته به. ويبدو أننا نرتكب أكبر الأخطاء، عندما نعزل الظواهر الأدبية والفنية عن سياقها التاريخي، ونحكم عليها أحكامًا مطلقة مجردة؛ ولهذا فقد تجردت من كل أحكامي السابقة وبدأت أعيش في عالم العطار.

حياة متعددة الجوانب:

وقبل التعرف على عالمه العلمي والفني لا بد من وقفه قصيرة لنتعرف على حياته، ويحدثنا صاحب (كنز الجوهر في تاريخ الأزهر) أنه ولد في القاهرة عام (1180ه)، وكان والده الشيخ محمد عطارًا فقيرًا له إلمام بالعلم، وكان يستعين بولده حسن في البيع والشراء ويستخدمه في صغار شؤونه.

ثم حفظ القرآن والتحق بالأزهر وجد في التحصيل على كبار المشايخ، كالشيخ الأمير والسيخ الصبان وغيرهما، حتى بلغ من العلوم في زمن قليل مبلغًا تميز به واستحق التصدي للتدريس، لكنه مال إلى الاستكمال فاشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها، ولما دخل الفرنسيون

إلى مصر فر إلى الصعيد كما فعل بعض العلماء، لكنه عـاد بعـد ذلـك واتـصل بهم، وتعلم من معارفهم ووقف على بعض علومهم وعلمهـم اللغـة العربيـة. ثــم ارتحــل في تلــك المــدة إلى الــشام وأقــام بدمــشق زمنًــا، واتــصل بعلمائها وشعرائها. وقد تـولى مـشيخة الأزهـر بعـد وفـاة الـشيخ الـدمهوجي (1246هـ)، وظل شيخًا للأزهـر حتـى آخـر عـام (1250هــ) حيـث انتقـل إلى رحاب اللـه.

ويقول عنه صاحب (كنز الجوهر) ص140: "وساح في بلاد كثيرة ولم يـزل مشتغلًا بالإفادة والاستفادة، حتى عاد إلى مصر بعلـوم كثـيرة وأقـر لـه علـماء مصر بالانفراد. وله تآليف عديدة، منها: حاشية على جمع الجوامع في الأصول، وحاشية على الأزهرية في النحو، وحاشية على مقولات السجاعي، وحاشية على السمرقندية، ورسالة، في كيفية العمل بالاسطرلاب والربعين المقنطـر والمجيـب والنسائط، وله رسائل في الطب والتشريح وغير ذلك"[10].

ونحن نلاحظ أن حياة الرجـل كانـت غنيـة متعـددة الجوانـب، فهـذا العطار الفقير الذي كان يستغل في دكان والده تمكن من أن يـصل إلى قمـة الحياة السياسية والعلمية، فكان شيخًا للأزهر، وكان محمد عـلي يستـشيره في الشؤون العلمية، وهو الذي رشح لـه (رفاعـه الطهطـاوي) ليكـون إمامًـا لأول بعثه علمية أرسلها إلى فرنسا. ثم هو إلى جانب تضلعه في علوم اللغة والدين، عالم بالطب والتـشريح والـصناعات الحديثـة في ذلـك الزمـان، ولـه

---

[10] سليمان رصد الحنفي، كنز الجوهر في تاريخ الأزهر، ص140.

ولع شديد بالإطلاع على الكتب المترجمة، ومـن خلالهـا ألم بالحـضارة الغربيـة والثقافة الفرنسية، وبذلك يكون العطار من ألمع مثقفينا في ذلك الزمان. وهو بهذا وحده جدير بأن يتبوأ منزلة رفيعـة بـين رواد نهـضتنا، ولكـن العطـار لم يقف عند هذا الحد بل كان لـه تـصور جديـد في الثقافـة والحيـاة، لخـصه في قوله: "إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالهـا، ويتجـدد بهـا مـن المعـارف مـا لـيس فيها". ثم يتعجب بعد ذلك كيف وصـلت فرنـسا إلى تلـك المعـارف والعلـوم، ويتعجب بكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاسـتفادة. ولا شـك أن هـذا التصور كان يعتبر ثورة في تلك الأيام، فالرجل يدعو إلى تغيير الحيـاة والثقافـة والحضارة، والاستفادة من التيارات الثقافية والعلمية التي عند الأمم الناهضة.

الروح المصرية العذبة:

فـلا عجـب أن يكـون هـذا الـشيخ الجليـل، وهـو شـيخ للأزهـر وإمـام للمسلمين، شاعرًا، يكتب في كـل الأغـراض حتـى في الحـب؛ ولهـذا لا بـد مـن الوقوف عند تجربته الفنية طويلًا، ودراستها على ضوء جديد في سياق عصرها بعيدًا عن التعميمات الظالمة المسرفة، وقد عشت في ديوانه المطبوع عدة أيام وتمكنت من الوقوف على بعض الخصائص التـي تميـزه عـن غـيره مـن شـعراء ذلك الزمان.

- فشعره يتمتع بتلك الروح المصرية العذبة.
- وله ولع بوصف الطبيعة بكل مظاهرها.
- ثم هو يلجأ في بعض الأحيان إلى التصوير البياني الرشيق.
- وقد تخفف إلى حد ما من ألاعيب الصنعة.

- وقد صور شعره كثيرًا من خبراته العلمية ورحلاته المتعددة، وبطبيعة الحال لم يخل شعره من الأغراض التقليدية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ولم يصل معظم شعره إلى تلك الأساليب الرائعة التي وصلت إليها مدرسة البعث، والتي أعادت إلى الشعر العربي ماءه ورواءه، ولكنه لم ينحط إلى المحاكاة الباردة التي وصلت بالشعر إلى نوع سخيف من الحيل وألاعيب الصناعة، وفي رأيي أن العطار حاول -قدر طاقته الفنية- أن يجدد في موضوعات الشعر، وأن يتمرد على السابقين، فهو لا يريد أن يبكي "بسقط اللوى بين الدخول وحومل" كما بكى امرؤ القيس، ولكنه يصف رياض الشام ومنتزهاتها فيقول:

بوادي دمشق الشام جز بي أخا البسط ... وعرج على باب السلام ولا تخط

ولا تبك ما بكى امرؤ القيس حوملًا ... ولا منزلًا أودى بمنعرج السقط

فإن على باب السلام من البها ... ملابس حسن قد حفظن من العط

هنالك تلقى ما يروقك منظرًا ... ويسلي عن الإخوان والصحب والرهط

عرائس أشجار إذا الريح هزها ... تميل سكارى وهي تخطر في مرط

كساها الحيا أثواب خطر فدثرت ... بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط

وإذا كان العطار لم يتوصل إلى تجديد حقيقي في شكل القصيدة أو مضمونها، فإنه قد أحس الحاجة الملحة إلى التجديد، ودعا إلى مخالفة الأقدمين وعدم السير على نهجهم. وليس هذا بالشيء القليل. فقد ظلت دعوات التجديد في الشعر العربي في مصر حتى وقت قريب مجرد تصورات

نظرية، ولم تتحقق بصورة فنية إلا في ثلاثينات هذا القرن.

رؤية شعرية متقدمة:

وقد كان العطار كلفًا بكتابة المطولات في شتى الأغراض ومن قصيدة له يمدح فيها صديقة (أبا القاسم المغربي) شيخ رواق المغاربة:

انهض فقد ولت جيوش وأقبل الصبح سفير اللثام

وغنت الورق على أيكها تنبه الشراب لشرب المدام

والزهر أضحى في الربا ناعسًا لما بكت بالظل عين الغمام

والغصن قد ماس بأزهاره لما غدت كالدر في الانتظام

كأنما الورقاء لما شدت تتلو علينا فضل هذا الإمام

ولم يقتصر شعره على هذا النمط الملون، بل كان له شعر بعيد عن الصنعة يحاول فيه أن يصك بعض الحكم. يقول في تهنئة صديق له أبعد عن نقابة الأشراف ثم عاد إليها:

الحمد لله على فضله قد رجع الحق إلى أهله

وصار روض الفضل ذا بهجة من بعد ما شقق من محله

قد يطلب الحسناء من لم يكن كفئًا لها؛ للحمق في عقله

ومنها:

قد يتساوى اثنان في منصب وإنما التفريق في سبله

ويفخر المرء بأفعاله لا بالذي قد مات من أهله

وقد يسود الشخص آباءه ويشرف الفرع على أصله

وقـد نـرى فـرعين مـن دوحـة | تخالفًا في الحكـم، مـع بطلـه
فالخـل والخمـر عـصير وقـد | بـاين هـذا ذاك في فعلـه

وفي هذه القصيدة رؤيـة شـعرية متقدمـة، تنظـر إلى النـاس مـن خـلال أفعالهم وسلوكهم، لا من خلال طبقاتهم وأحسابهم وأنسابهم.

وديـوان العطـار حافـل بتـصوير الطبيعـة ومباهجهـا، وقـد صـور بركـة الأزبكية وما حولها من قصور وأشجار ومسرات في قصيدة منها:

بالأزبكيـة طابـت لي مـسرات | ولـذ لي في بـديع الأنـس أوقـات
حيث المياه بها والفلـك سـابحة | كأنهـا الزهـر تحويهـا الـسموات
وقـد أديـر بهـا دور مـشيدة | كأنهـا لبـدور الحـسن هـالات
والماء حين سرى رطب النسيم به | وحـل فيـه مـن الأدواح زهـرات
كـسابغات دروع فوقهـا نقـط | من فضة وإحمرار الورد طعنـات

منارة تهتدي بها الأجيال:

ثم هو بعد ذلك كله يصور نوازع قلبه وأشواق روحـه، دون أن يـضع في اعتباره منصبه الديني الكبير كـشيخ للأزهـر، وقـد نظـم أكـثر مـن قـصيدة في الغزل ومنها:

أعن المحب ثناك عنه وجيبـه | أم قد دعـاك إلى البعـاد رقيبـه؟
هجـر الكـرى لمـا هجـرت | ـــه شجونه وازداد فيـه نحيبـه
لم يجـن ذنبًـا في هـواك وإنمـا | قد كـان بـالهجران منـك نـصيبه
أفقرتـه مـن حـسن وصـلك | جـادت عليـك دموعـه ونـسيبه

أفـلا رثيـت لعاشـق لعبـت بـه أيـدي المنـون ونازعتـه خطوبـه

أنت النعيم له ومن عجـب تعـذ بـــه وتمرضـــه وأنـــت طبيبـــه

والذي يطرق هذه المعـاني، ويتـذلل للحبيـب كـل هـذا التـذلل ويطلـب وصاله ورحمته، ويشكو صده وهجره دون أن يخشى قالة السوء، أو أن يـضع في حسبانه ما يجب لأمثاله من الشيوخ الأجلاء من التوقر والبعد عـن الريـب والظنون، لجدير أن يكون أعجوبة الأعاجيب، وخليق أن نعاود النظر في شعره من جديـد، وفي ضـوء ظروفـه وتجاربـه وظـروف عـصره، لا أن نكتفـي بتلـك الأحكام الجاهزة التي نرددهـا في كـل المناسـبات. وأعتقـد أن القـرنين الثـامن عـشر والتاسـع عـشر في حاجـة إلى مثـل هـذه المعـاودة المتأنيـة في الدراسـة والحكم. ولكن - مع ذلك، وبعد ذلك - سيبقى العطار أكبر من شعره وستظل أفكاره وآراؤه في الثقافة والحضارة منارة تهتدي بها الأجيال.

الأَزهر ومدارس الشعر المعاصر

الأستاذ / عبد العزيز الدسوقي

لا شك في أن (الأزهر) أصبح من أكبر القسمات المميـزة لحياتنـا الثقافيـة والأدبية والروحية، على امتداد الأرض العربية، والعالم الإسلامي، منذ أكثر مـن ألف عام. بل لعلي لا أغلو إذا قـررت أن (الأزهـر) لعـب دورًا هامًـا في تـاريخ الحضارة الإنسانية، ومنح التـاريخ الإنـساني أنـضر الـصفحات، وأعطـى الحيـاة الفكرية والروحية أعظم الرجال.

لن أستطرد إلى المجالات المتعددة التي أسهم الأزهـر فيهـا إسـهامًا كبـيرًا، وسأقصر هـذه الدراسـة عـلى أثـر الأزهـر في اتجاهـات الـشعر بـصفة عامـة، ومدارس الشعر المعاصر بصفة خاصة.

فقد أصبح من البدهيات التي لا يماري فيها أحد أن من بين أبناء الأزهـر كثيرين ممن أسهموا في صنع نهضتنا الحديثة، فمن بين جدرانه ومن أروقتـه امتلأت المدارس الحديثة والمعاهـد التـي أنـشئت منـذ مطـالع القـرن التاسـع عـشر، كمدرسـة الطـب والهندسـة والألـسن ودار العلـوم والقـضاء الـشرعي، وغيرهــا مــن المعاهــد التــي طــورت الحيــاة في مــصر وانتقلــت بهــا إلى ركـب الحـضارة الإنـسانية ومـن بـين أبنائـه شـكلت البعثـات العلميـة التـي وصلت الشرق بـالغرب، وتفتحـت عـلى المعـارف الحديثـة وعـادت إلى الـبلاد تغرس فيها تلـك البـذور التـي أثمـرت فـيما بعـد أشـهى الثمـرات. وفي مجـال

الزعامة العلمية والقومية والسياسية والتشريعية تجد أشهر الأسماء التي تخرجت في هذا المعهد العتيد.

كوكبة الشعراء الأعلام:

على أن الأزهر كان له دور كبير فيما يتعلق بالأدب والثقافة وبصفة خاصة ما يتعلق بالشعر؛ وذلك بفضل التكوين الثقافي والإعداد العلمي الذي كان يتوافر لأبنائه بصورة كبيرة في مجال العلوم العربية، إلى جانب الفقه والتفسير وبقية العلوم الشرعية. وكانت طريقة التدريس في ذلك المعهد - مهما شابها من عيوب - تكون العقل العربي تكوينًا متينًا، وتربي في الطالب ملكة مقتدرة، يستطيع من خلالها أن يستوعب كل المعارف الإنسانية مهما كانت.

وكانت هذه الطريقة تصقل الطالب وتعوده الصبر والمثابرة والجلد، وحسن التلقي والقدرة على التحصيل والاستيعاب. وعندما كان يتاح لهذه العقول أن تتفتح على ثقافة حديثة أو تتصل بالحضارة الإنسانية، كانت تفيد أكبر الإفادة، وتؤثر بعد ذلك أكبر التأثير. وكانت دراسة الشعر والعروض وتاريخ الأدب، من الدراسات التي احتفظ بها الأزهر في مختلف مراحله، وكان الطلاب يلوذون بهذه العلوم فرارًا من متون الفقه والأصول والمنطق وشروحها وحواشيها وتقاريرها.

وقد كان هؤلاء الطلاب يحفظون كثيرًا من الشعر بكل أنواعه وفي كل عصوره، جاهليًا وإسلاميًا وأمويًا وعباسيًا، ومن هنا كانت تتكون لهم ملكة النظم. ويمكن أن نقول أن شعراء القرن التاسع عشر - كلهم أو معظمهم - كانوا من الأزهر.

ولقد عشت فترة من الزمان في تاريخ الجبرتي، حتى أتبين ملامح هؤلاء الشعراء، فهالني أن أجد تلك الكوكبة الكبيرة من شعراء الأزهر الأعلام، ومهما قيل حول شعرهم الآن، فإنه كان متلائمًا مع المرحلة الحضارية التي كانوا يعيشون فيها. ونخطئ كل الخطأ، لو حاسبناهم بتلك المعايير الفنية التي نقيس بها شعرنا المعاصر، فهذا - فوق كونه خطأ منهجيًا - يفصل الظواهر الفنية عن سياقها الحضارى ويتجاهل ظروفها وبيئتها.

ومع ذلك فهناك عدد كبير من هؤلاء الشعراء يمكن أن نلتمس في بعض أشعارهم إشعاعات نافذة، تعبق بعطور القدم، وتثير في العقول والنفوس لذة ومتاعًا.

(المارسيلييز) بالعربية:

لن نستطيع أن نتتبع كل شعراء الأزهر وأثرهم في النهضة الأدبية الحديثة، وإلا تحولت هذه الدراسة إلى مجرد سرد أسماء، ويكفي أن نشير إلى أنهم طوروا ما نسميه الآن تجوزًا (مدارس الشعر الحديث) أو بمعنى أدق أسهموا في تطوير اتجاهات الشعر العربي عبر قرنين من الزمان. ولقد كانت لهم قيادة فكرية وروحية في المجتمع العربي في مصر، ومن هنا كان يجيء تأثيرهم القوى في الرأي العام.

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر، كان هؤلاء الشعراء الأزهريون يستخدمون الشعر سلاحًا وطنيًا وقوميًا، ويكفي أن نشير إلى عبد الله النديم الثائر العظيم، الذي كان يستخدم الشعر والزجل والكلمة سلاحًا في معركته التي خاضها طوال حياته المثيرة المشعة، حتى ثوى في أرض الغربة، وقبل عبد الله النديم، ترجم رفاعه الطهطاوي (المارسلييز) نشيد الثورة

الفرنسية شعرًا إلى العربية، ونظم بعد ذلك عدة أناشيد وطنية وثورية.

في هذا الوقت المبكر من الزمان ظهر من شعراء الأزهر الأعلام، الخشاب وحسن العطار (1834) وعبد الله الشبراوي، وعلي الدرويش (1853) ومحمد شهاب الدين المصري، ومصطفى الصاوي، وعلي أبو النصر (1880) وعلي الليثي (1896)، وحسن قويدر الخليل (1845) وعبد الهادي نجا الإبياري (1888) وغيرهم، وغيرهم.

طرائف وغرائب:

ومن الغريب أننا نجد في هذه الفترة المبكرة من الزمان تحررًا وجرأة من هؤلاء الشعراء الأعلام من رجال الأزهر، فبعضهم وصل إلى مشيخة الأزهر، وهي أكبر منصب ديني كان له سطوة كبيرة، وتأثير جليل، ومع ذلك وجدت لهم شعرًا في الغزل، وبعضهم نظم ما يمكن أن نسميه الآن بشعر المجون أو الشعر المكشوف.

وقد أثار دهشتي أن أجد في القرن الثامن عشر شاعرًا من شعراء الأزهر يسمى حسن البدري (1718م) يكتب الشعر في مجالات مختلفة، في النقد الاجتماعي والأخلاقي إلى جانب أراجيزه في التصوف، ثم يكتب مع هذا شعرًا في الغزل المكشوف، أو بمعنى أدق يكتب (شعر المجون) ومع ذلك فقد كان هذا الرجل ورعًا متصوفًا، كثير الانتقاد لأهل عصره وعاداتهم الفاسدة، وتظاهرهم بالورع والتقوى، وكان خفيف الظل، بارع الفكاهة. يقول عن أدعياء التصوف:

ليتنا لم نعش إلى أن رأينا   كل ذي جنة لدى الناس قطبا

ويقول عن بعض أصحاب اللحى الزائفة:

رب قـــصير في الـــورى لحيتـــه طولهـــا اللـــــه بـــلا فائـــدة

كأنهـــا بعـــض ليـــالي الـــشتا طويلـــــة مظلمـــــة بـــــاردة

وجهة نظر متقدمة:

وهناك شاعر آخر مـن شـعراء الأزهـر في القـرن الثـامن عـشر (1770م)، اسمه (عبد اللـه سلامة الإدكاوي)، وهو علـم مـن أعـلام الفكاهـة والمجـون، ويحدثنا الجبرتي أن له مقامة في المجون أسمها (المقامة القمذية)، وفيها هـزل كثير. ولكن الذي يلفت النظـر في الـشاعر (الإدكـاوي) أنـه كـان واسـع الأفـق متفتح النفس، له وجهة نظر متقدمة في القديم والجديد، وكان حسه المعاصر يدفعه إلى تقبل كل جيد وعـدم رفـض أي شيء؛ بحجـة أنـه لا يلتـزم الـصورة القديمة، وقد صاغ هذه الرؤية المتقدمة في أبيات واضحة يقول فيها:

كـــن للمعـــاصر خـــير نـــاصر كـــم للأواخـــر مـــن مفـــاخر

لا تحقـــــــرن جديـــــــدهم كـــم في جديـــدهم جـــواهر

ودع التعـــــــصب لـــــــلأوا ئـــل يـــا فتـــى، أو للأواخـــر

مـــن كـــان مـــنهم مبـــدعًا فاعقـــد عليـــه مـــن الخنـــاصر

هذه المرحلة المتقدمة يمكن أن نسميها المرحلة التقليدية على الرغم مما فيها من بعض اللمحات الذكية والنقدات الاجتماعية الواعية، وبعض الـشعراء المتقـدمين. ولقـد امتـدت هـذه المرحلـة فـشملت مجموعـة مـن شـعراء

القرن التاسع عشر وبعض شعراء القرن العشرين ومنهم عبد اللـه فكري، وعبد الرحمن قراعة، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وأحمد محمـد الحمـلاوي، وغيرهم.

الشعر والوحدة الوطنية:

ومن هـؤلاء الـشعراء مـن هـو في حاجـة إلى دراسـة خاصـة، تعـرف بـه وتكشف أسرار فنه، فقد ابتلع طوفان الزمان كثيرًا مـن هـؤلاء الـشعراء ظلـمًا وعدوانًا، وكان يجب أن تظل أسماؤهم في دائرة الـضوء، أو عـلى الأقـل تأخـذ حظها من التألق والبريق. ومن هؤلاء الشاعر الأزهري أحمد محمد الحملاوي (1856 - 1932)، وهـو عـالم لغـوي حجـة ولـه مؤلفـات ذائعـة في الـصرف والبلاغة، أخذت شهرة أكثر من اسـمه منهـا: (زهـر الربيـع في المعـاني والبيـان والبديع)، و(شذا العرف في فن الصرف).

ولكـن شـهرته كـشاعر عفـا عليهـا الزمـان، عـلى الـرغم مـن شـاعريته الناضـجة، وفي ديوانـه المطبـوع كثـير مـن الـشعر الـسياسي والقـومي وشـعر التصوف وشكوى الزمان، وله قـصيدة ينـاجي فيهـا مـصر نـداء عاطفيًـا حـارًا تحس فيها بمعاصرة شديدة. يقول فيها:

يا مصر لا تقنطي، فالنصر قد حانا   سبحان من أرغم الأعـداء سـبحانا

ولا تخـافي، فعـين الكـل سـاهرة   فالـدهر أدبنـا جمعًـا وربانـا

ولقنتنـا الليـالي مـن تـصرفها   ما شان من حالة الـدنيا ومـا زانـا

وهـي قـصيدة طويلـة حافلـة بـالنظرات الـسياسية التـي تكـاد تلامـس همومنا المعاصرة، فهو يتحدث عن الوحدة الوطنية بـين أبنـاء الأمـة، ويـرفض

وصاية الأعداء وحمايتهم. يقول:

فالكل بالروح يفديها وينـصرها وإن هم اختلفوا رسلًا وأديانا

القلب مؤتلف والدين مختلف لكــن تــراهم - أمــام الأم –

ثم يقول:

فلا وربـك لا نـرضى حمايـتهم وإن هم رفعـوا للعـدل ميزانـا

وكيــف والغــدر والعــدوان وقد أسالوا دماء العزل خلجانـا

وهناك شاعر آخر متين النسج قوي الديباجة، هـو عبـد الـرحمن قراعـة، وقد سبب له الشعر كثيرًا من المتاعب، فقد كتب قصيدة بعد أن تـرك الـشيخ المهدي مشيخة الأزهر، وأصبح الشيخ الإمبابي شيخًا له، يقول في مطلعها:

خذوا حذركم فالأمر قد جاء لقد ظهر الدجال واختبأ المهـدي

فنكل به الشيخ الإمبابي، وظل ينقله فترة طويلة، وقد كتب قـصيدة بعـد زمان طويل يستعطف الشيخ الإمبابي، قال فيها:

أمـا آن أن تنـسى الربـاب وزينبـا وتقلـع عـما كـان في زمـن الـصبا

ألم تعتـبر إذ كنــت أجـرد أمـردا ودهم الليـالي قـد تركنـك أشـيبا

وهو استعطاف عجيب يدل على إباء الشيخ قراعة واعتداده بنفـسه. بعد ذلك لا أبغي المضي في استعراض أسماء الشعراء من الأزهر عـلى هـذا النحو بطريقة غير منهجية، بل لا بد من تأصيل نظـري يجمـع كـل هـذه الأسماء، فيما يشبه أن يكون مدارس شـعرية أو اتجاهـات. وهنـا لا يمكـن

فصل هؤلاء الشعراء عن مدارس الشعر التي سادت في الأمة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الآن، وهي: مدرسة البعث، ومدرسة التجديد، ومدرسة أبوللو، وجيل الشعر الحديث أو جيل الشعر الحر. وقد أمد الأزهر كل هذه المدارس بأبرز أبنائها وروادها.

فكرة جديدة:

وقبل أن أتعرف على أبناء كل مدرسة من هذه المدارس، أحب أن أعرض فكرة جديدة اقتنعت بها بعد سياحة طويلة في اتجاهات الثقافة العربية الحديثة، وهي أنني أعتبر أبناء الأزهر ودار العلوم والقضاء الشرعي أبناء ثقافة واحدة، وفي مجال الظاهرة الأدبية والفنية أعتبرهم جميعًا أزهريين، وأنا أعلم أن هذه الفكرة ستغضب بعض أشقائنا الدراعمة، الذين يعتبرون أنفسهم الآن أبناء جامعة القاهرة، ولكن فليغفروا لي هذا التصور الذي برز بصورة واضحة أمامي وأنا أكتب هذه الدراسة عن شعراء الأزهر وأثرهم في مدارس الشعر المعاصر.

والفكرة على كل حال تستند إلى أسس علمية موضوعية، فلا شك أن (دار العلوم) تلك المدرسة العتيدة منذ قامت في عام 1871، كانت رافدًا عميقًا أو فرعًا من فروع الأزهر، والفرع الثاني هو مدرسة القضاء الشرعي التي أنشأها سعد زغلول عندما كان وزيرًا للمعارف في عام 1907، وإذا مضينا في التشبيه واعتبرنا الأزهر هو النيل، وهذين المعهدين هما فرعاه، فإنني أعتقد أن هذين الفرعين اكتسبا حيوية وشبابًا جددت شباب النهر الأم.

فإذا بعدنا عن التشبيهات وعمدنا إلى الحقائق، وجدنا أن مدرسة دار

العلوم منذ قامت تستمد تلاميذها من الأزهر، وكذلك مدرسة القضاء الشرعي، بل إن الرعيل الأول من أساتذة دار العلوم كان من الأزهر. نذكر على سبيل المثال الحسين المرصفي، ومحمد عبده، وحسن الطويل، وحمزة فتح الله، وحسونة النواوي، وسيلمان العبد.

وكذلك أمد الأزهر مدرسة القضاء الشرعي بصفوة من أبنائه الأعلام، قاموا بالتدريس فيها منذ إنشائها، نذكر منهم: عبد المجيد سليم، وإبراهيم حمروش، ومحمد بخيت المطيعي، ومحمد طموم، وحسين والي.

حتى الجامعة المصرية منذ قامت في عام 1908، استضافت بين أساتذتها من رجال الأزهر محمد المهدي، ومحمد الخضر، والسيد بن علي المرصفي، وغيرهم؛ لهذا أعتبر الشعراء الذين تخرجوا في دار العلوم والقضاء الشرعي شعراء أزهريين.

وعلى كل حال هناك سبب موضوعي يدعوني إلى هذا، وهو أن هؤلاء تكونوا علميًا وفنيًا في الأزهر طوال تسع سنوات، وأتيح لهم من الزاد الفني والأدبي قسط كبير، صقل ملكاتهم الفنية ونما مواهبهم الشعرية. وأظن أن ملامح الشاعرية تتكون وتتحدد في تلك السن المبكرة من الشباب (حتى العشرين)، وهؤلاء جميعًا ظلوا في الأزهر إلى ما بعد سن العشرين بقليل، وذهبوا إلى معاهدهم الجديدة، وهم شعراء متكونون. بطبيعة الحال تفتحوا على معارف جديدة، وثقافات مختلفة زادتهم تفتحًا ونموًا، ولكن لون شاعريتهم ظل يدين لهذا التكوين الأول في الأزهر. وليس هناك شك في أن هؤلاء أغنوا مدارس الشعر العربي الحديث.

مدرسة البعث:

ففي مدرسة البعث التي رادها البارودي وشوقي وحافظ، يمكن أن نضيف محمد عبد المطلب، وعبد الوهاب عزام، وعلي الجارم، ومحمود غنيم، ومحمد الأسمر، وعلي الجندى، وعبد الله عفيفي، وعبد الجواد رمضان، والباقوري، ومحمد نايل، والبديوى، و(أبا الخشب)، والخفاجي، وغيرهم.

مدرسة التجديد:

وأما مدرسة التجديد التي رادها العقاد وشكري والمازني، فيمكن أن نضيف إليها العوضي الوكيل، وأحمد مخيمر، وعبد العزيز عتيق، وغيرهم.

مدرسة أبوللو:

وفي جماعة أبوللو التي رادها علي محمود طه، وأبو شادي، وناجي، والصيرفي، وصالح جودت، وتلألأت مجموعة من ألمع أبناء هذه المدرسة من الأزهر ودار العلوم، منهم محمود حسن إسماعيل، ومحمد عبد الغني حسن، وطاهر أبو فاشا، وأحمد عبد المجيد الغزالي، والمهدي مصطفى، وغيرهم.

جيل الشعر الحر:

وقد جاء جيل جديد من الشعراء بعد أبوللو، يطلقون عليه جيل الشعر الحر. وقد رفد الأزهر ودار العلوم هذا الجيل بصفوة من أبنائه أعتبرهم أقدر شعراء هذه المدرسة الحديثة التي تتخذ من التفعيلة وحدة لبناء القصيدة، وتحاول أن تدخل على القصيدة أصواتًا متعددة، وتفيد من أشكال فنية أخرى في تنسيق القصيدة، وتتخذ من الأسطورة والموروثات الشعبية رموزًا تغني القصيدة.

هؤلاء الشعراء الذين تكونوا في الأزهر ودار العلوم، وتفتحوا على

هذا اللون الجديد من الشعر أو هذا النسق، أظهروا مقدرة فنية هائلة؛ لأنهم يملكون الأدوات الفنية، ويمزجون في تكوينهم العقلي والروحي أنضج ما في التراث بأبهى ما في الثقافة المعاصرة؛ لذلك خلا إبداعهم الفني من الغموض الكثيف الذي يصل إلى درجة الألغاز، ومن هذه العجمة وتلك الركاكة التي تحيل القصيدة إلى ما يشبه الترجمات الركيكة. وكان هذا الجيل قد أنتج موجتين متعاقبتين على الرغم مما يوضع في سبيلهم من عقبات، ومما يتربص بهم من اضطهاد، جعل بعضهم يحسون أنهم (زنوج الثقافة العربية). قاد الموجة الأولى عبده بدوي، وسعد دعبيس، وفاروق شوشة، وكيلاني سند، وغيرهم. وقاد الموجة الثانية محمد إبراهيم أبو سنة، وكمال عمار، ومحمد أحمد العزب، وأنس داود، وغيرهم. وأنا أعتبر عبده بدوي همزة الوصل بين جيل أبوللو وهذا الجيل الجديد، بل لعله أسبق شعراء المدرسة الحديثة - في مصر - إبداعًا في هذا اللون من الشعر، بل نشر شعرًا في جريدة المصري قبل صلاح عبد الصبور.

ثم هو دائمًا يبحث عن آفاق جديدة يستثمر فيها هذا اللون الجديد من الشعر، فمرة يكتب (أوبريت) مثل أوبرا الأرض العالية، ومرة يكتب (قصيدًا سيمفونيًا) يتناول فيه حياة النبي العربي (عليه السلام)، ومرة يحيل المواقف الإسلامية والأحداث والشارات والشخصيات رموزًا يستعملها برشاقة وفنية؛ ولذلك آن الأوان لأن نقول أن رائد هذه المدرسة الحديثة في مصر هو عبده بدوي، ثم هو لم يهجر عمود الشعر العربي، بل يبدع فيه أيضًا كثيرًا من نتاجه، وحتى وهو يبدع في هذا اللون الجديد يقبع في أعماقه هذا التراث العربي كله، يشكل تجربته ويمنحها الأصالة والعمق.

تلك هي أهم المدارس الشعرية المعاصرة، وهـذا هـو الأثـر الكبـير الـذي أحدثه الأزهر فيها، وتلك بعض الأسماء من أبنائه التي كان لها أعمق الأثـر في تطوير شـعرنا الحـديث، ولا يمكننـي أن أتنـاول كـل هـذه الأسـماء بالدراسـة التفصيلية. ولكن لا بد من الوقوف عند شخـصيتين مـن أكـبر شـعراء مدرسـة البعـث، انـسحبت عـنهما الأضـواء في الأعـوام الأخـيرة، وهـما الـشاعران عـلي الجندي، ومحمد الأسمر. فهذان الشاعران من أعذب الأوتار في قيثـارة شـعرنا المعاصر، وهما شخصيتان من أعذب الشخصيات في عالم الفن.

صاحب (ترانيم الليل):

أما الشاعر علي الجندي فهو نسمة من أرق النسمات، روح عذب ونفس وديعة صافية، وقلـب يفـيض بالحـب والرحمـة والحنـان، ويحتـدم في باطنـه شخص مقتحم غزل يحب الجمال، ولكنه يقمعه بهذا المظهـر الوديـع الهـادئ النبيل. ولد في شندويل من أعمال سوهاج، وحفظ القرآن ودخـل الأزهـر، ثـم دخل دار العلوم وتخرج فيها، وعمل مدرسًا بالمدارس ثم مدرسًا بدار العلـوم، ثم ظل يترقى حتى صار عميدًا لكلية دار العلوم. وقد أصدر ثلاثة دواوين من الشعر هي (أغاريد السحر) في عـام 1947، و(ألحـان الأصـيل) في عـام 1950، وأصدرت دار المعارف في عام 1964 ديوانه الثالث (ترانيم الليل).

وشعره رصين جزل قوي البناء، فيه كثير من الماء والرواء، يمتاز شعره كـما يقـول الـدكتور شـوقي ضـيف في مقدمـة ديوانـه الثالـث: "بجزالـة الـصياغة ورصانتها ومتانتهـا وقوتهـا، وقـد تجـرى الـسهولة المفرطـة في بعـض جوانـب صياغته، ولكن يظل الرونق لا يفارقهـا، وتلازمهـا العذوبـة والـسلاسة. ويوقـع

الـشاعر ترانيمـه وألحانـه عـلى أوتـار قيثارتنـا الـشعرية، الموروثـة عـن الآبـاء والأسلاف، والتي تهزنا وتروعنا بما تقدمه لنا من غذاء للعقول، وشفاء للقلوب والنفوس". والشاعر مرهـف الـنفس رقيـق الـشعور ثـري العواطـف، ظـاهره كعاطفة تلوح على صفحة وجهه كل التيارات التي تمور في باطنـه، يتحـول إلى دموع لمجرد أن يرى منظـرًا مؤلمًـا أو يـرتطم بعقبـات الحيـاة، ثـم هـو رجـل متدين شديد الاعتماد على الـلـه.

صورة نفسية:

وقد رسم لنفسه لوحة نفسية تكاد تكون مفتاح قلبه وعقله يقول:

لكـــل امـــرئ جهـــر يخـــالف سره ومـــا لي مـــن سر يخالفـــه جهـــري

تطـالع في وجهـي صـحيفة خـاطري وتقـرأ في عينـي مـا جـال في صـدري

خلقـــت كعيـــسى لا أكـــن ضـــغينة بقلبي ولا أطوي ضلوعي عـلى غـدر

ثم هو دائم الشكوى والحزن والألم، يشكو ظروف حياته ويـشكو حظـه، ويتألم لشعرات بيضاء تلم برأسه، يقول من قصيدته (بين الرأس والقلب):

شعرات في مفـرق الـرأس لاحـت كنجـــوم تـــضيء في الـــديجور

تركتنـــي في نـــضرة العمـــر أبـــكي ذكريـــات الـــصبا بـــدمع غزيـــر

وكـــستني ثـــوب الوقـــار، وهـــل فى العـــين مـــن وقـــار الـــصغير

يـــا لظلـــم الأيـــام إذ وقفتنـــي بـــين رأس شـــيخ وقلـــب غريـــر

ذاك يـــدعو إلى الرشـــاد وهـــذا مـــستهام بكـــل وجـــه نـــضير

أما الغزل فله فيه جولات وصولات، وكلها لا تتعدى وصف تجاربه مع الفاتنات الحسان، وتجاربه عادة تقف عند النظر الأبيض البريء، وفي شعره الفكاهي سخرية نافذة، تصل إلى درجة الإيلام. يقول في (بعض الثقلاء):

ثقيل على أرواحنا نقل الحجر نلقبه من شؤمه (زحل البشر)

تغيب بشاشات المنى بحضوره وتهجر أحزان النفوس إذا هجر

كأن ثلوج القطب حشو ثيابه فإن هو وافى كاد يقتلنا الخضر[11]

ترى الصحب منه مشفقين كأنما تساورهم من قربه الحية الذكر

فإن لمحوه من بعيد تغامزوا ولاذوا سراعًا بالأخاديد والحفر

وهو دائم الحنين إلى ماضيه، وله قصيدة نافذة بعنوان (مغنى الصبا الأول) من أرق الشعر المعاصر، وهي تجربة عميقة، عاد الشاعر فيها إلى حجرة كان يسكنها في أيام التلمذة، فوجدها ساحة خرابًا يبابًا، تتناثر فيها الحجارة وأكوام الصبا، فراح يناجيها في انفعال عميق:

أمغنى الصبا والصبا أخضر حبا فوقك العارض الممطر

وعلى الرغم من أن الشاعر كتب في كل الأغراض الشعرية بمقدرة وأصالة، إلا أن شعره الذي رثا فيه أصدقاءه من أعمق ألوان الشعر عنده، تحس فيه ذوب الدموع ونبض القلب وصدق العاطفة. وله شعر يعبر عن تمرده وثورته على واقعه، وله قصيدة بعنوان (ليتني كنت صفيقًا) يقول

---

(11) البرد.

فيها:

سر تعسي وخيبتي وشقائي أنني حامل محيا رقيقا

ونحن لا نوافق الشاعر بطبيعة الحال على هذه السخرية النافذة، ونعتبر أن هذه الخلال النبيلة والأخلاق الفاضلة والمنزلة العلمية الرفيعة والطبيعة الإنسانية السمحة، كل هذه السجايا التي يتمتع بها شاعرنا الكبير هي التي جعلت منه هذا الصرح الشامخ الذي سيخلد على الزمان.

سجل حافل بالأمجاد:

أما الشخصية الثانية التي سأقف عندها فهي شخصية الشاعر محمد الأسمر، وهو من شعراء البعث الكبار، تمرس بالشعر فترة طويلة من الزمان، وهو شخص مصقول النفس والذوق والسمت، مرح خفيف الظل، بارع النكتة، صافي الطبع، دمث الأخلاق. ولد في دمياط وتعلم في الأزهر واشتغل في مكتبة الأزهر، وظل لهذا متفرغًا للشعر. وقد أصدر ديوانه الكبير بعنوان (ديوان الأسمر) في عام 1951 في نحو 660 صفحة، وضع فيها عصارة قلبه وذوب نفسه ونبض وجدانه. وقد وصف الشيخ مصطفى عبد الرازق شعره بقوله: "لشعرك تأثير في نفسي أحسبه يفوق ما يفعل الشعر، ذلك أنه فيض نفس أحبها. وقد يكون سحرًا ذلك الذي ترسله نغمًا موسيقيًا في أسلوب سهل قيسري في الأرواح، ويفجر العواطف خلالها تفجيراً".

والحق أن ذلك السحر الشجي الذي نشعر به ونحن نعيش مع تجارب الأسمر الشعرية ثمرة من ثمار موهبته الكبيرة، التي امتزجت بأدواته التعبيرية

والتصويرية، وأخرجت لنا هذا الفيض الشعري العميق. وديوان الشاعر سجل حافل لحياة الأمة العربية بأمجادها السياسية والاجتماعية، وتصوير لمعالم الحياة فيها ووصف لمظاهر الطبيعة، ثم فيه الكثير من الإخوانيات والمداعبات التي تنم عن نفس مرحة وذوق رفيع، ولكنه كان يعبر أحيانًا عن تجاربه الذاتية وإحساسه الحاد بالحياة، فيجيء شعره فلسفيًا نابضًا بالمرارة والألم، يقول في قصيدة له بعنوان (أسير):

أنا كالطير أسير واقع بين الشباك

طال ما بين جناحي وجبالي من عراك

ويكاد يكون الأسمر من أوائل الشعراء الذين صوروا مأساة الحرب العالمية الثانية أدق تصوير، في مجموعة من القصائد الحارة. فكتب (قبل الحرب العالمية)، وكتب عندما قامت الحرب، وكتب عن المخابئ (وليالي الغارات الجوية)، ويقول في هذه القصيدة الأخيرة:

وناعبة في الليل يسري نعيبها تحذر شر الطائرات وتنذر

نهضنا لها متيقظين وعلمت أخا القوم فيما علمت كيف

ونطفئ أو نخفي المصابيح نتقي عواقب بعض النور والنجم ينظر

ولو ناله ما نالنا لم تلح له مصابيح مثل الروض وهو منور

وبات كما بتنا على شر حاله نعاني ظلام الليل والليل أعكر

وقد خص فلسطين بباب كبير من ديوانه، وفي شعره الروحي تتجلى قدرته الشعرية وطاقته الفنية. وقد كتب الشاعر في مقدمة ديوانه تجربته وهو يبدع قصائده في دقة تفيد الباحث، يقول: "وإني في أول نظمي

للقصيدة أجدني مسوقًا إلى نظمها بشعور خفي، ليس في ما يرهق أعصابي، ثـم يأخذني التيار الجارف فيربد وجهي، وأظل ذابل البصر، غائبًا بعض الغياب عما حولى. وفي هذه الحالة إذا نمت كان نومي متقطعًا، أغفـو الإغفـاءة ثـم أقـوم ناهضًا إلى القلـم والقرطـاس؛ لأن معنـى مـن المعـاني تمـت صـياغته بيتًـا مـن الأبيات، وإنـه ليخيـل إلي أن مخـي في أول عمـل القـصيدة، إنمـا هـو (سـاعة) أملؤها، وهو بعد ذلك يؤدي عملـه بنفـسه ولا سـلطان لي عليـه (كـما تـؤدى الساعة عملها)".

وفي هذه اللمحـات مفـاتيح نفـسية كثـيرة، يمكـن مـن خلالهـا أن نقـوم بدراسة الشاعر وتجربته الشعرية على ضوء من التحليل النفسي.



الفنانون والأزهر

الأستاذ/ كمال النجمي

قد يبدو في عنوان هذا المقال بعض الغرابة أو المبالغة، فما هي الصلة بين الفن، وبين الأزهر المعمور؟! ولكن دعني أقل لك شيئًا تحت هذا العنوان، فلعلك تجد في آخر الأمر أن الفن المصري ينتسب إلى الأزهر نوعًا من الانتساب لا غرابة فيه، وإن لبث الأزهر طوال عمره المديد جامعة لعلوم الدين واللغة والأدب وحدها، واتخذ الفن طريقًا مستقلًا خاصًا.

وحديثنا كله في هذه الصفحات مقصور على فن الغناء، وأهل هذا الفن في عصر يمتد أكثر من مئة عام، وكلهم انتسب إلى الأزهر بالتعلم فيه أو التعلم منه، أو الاقتباس مما يبعثه خارج جدرانه من النور على سائر الناس.

والغناء يخصه العرب بالحب الشديد منذ الزمان الأول، وقد ارتبطت أصوله وقواعده منذ ألوف السنين بالشعر العربي، بل حتى بالكلمة العربية المفردة، فضلًا عن التفعيلة في الشعر، وفضلًا عن بحوره المتكاملة التفعيلات والأوزان.

وتفعيلات الشعر العربي في صميمها، هي إيقاعات ميلودية (مفردة)، قائمة على سلم الغناء العربي أو الموسيقى العربية. ولو تمردت هذه

التفعيلات على الإيقاع العربي لخرجت تمامًا من الأوزان العروضية العربية القائمة على الصوت العربي، وعلى أجزائه الدقيقة التي يسميها سادتنا الموسيقيون (ثلاثة أرباع الصوت)، ويسمونها أحيانًا ربع الصوت. والكلمة العربية المفردة كذلك لا تحيد عن هذه القاعدة، فإن اشتقاق المفردات العربية أساسه التوزين الصوتي في سلم الموسيقى العربية.

وبهذا تختلف اللغة العربية - إذ تقوم على الاشتقاق - عن اللغات الأوروبية القائمة على النحت، ويختلف شعرها عن شعرها، وغناؤها عن غنائها.

ومهما قيل عن تطوير الموسيقى العربية، فإن الحقيقة الثابتة هي أن الكلمة العربية إيقاع، وبحر الشعر إيقاع. والوزن اللغوي والوزن العروضي مرتبطان أوثق الارتباط بالوزن الموسيقي.

وهذا الامتزاج الحميم بين الغناء والشعر، متصل من قديم بأسباب عميقة في تاريخ الإنسان العربي، فلا سبيل إلى التفريق بينهما، إلا إذا هجر الإنسان العربي لغته وتكلم باللسان الرومى مثلًا!

وهذا هو السر في أن فن الغناء العربي قد تطور في عهده الذهبي أيام العباسيين، وازدهر واستبحر على أيدى موسيقيين ومطربين، كانوا ينظمون الشعر أو يتذوقونه تذوقًا صحيحًا، كإسحاق الموصلي وأبيه، وإبراهيم بن المهدي وابن جامع ومخارق وغيرهم.

الشيخ محمد شهاب:

ولما أخذت الأمة العربية تنهض وتسترد شخصيتها بعد حملة نابليون على مصر في آخر القرن الثامن عشر، مست النهضة العربية الغناء

والشعر معًا. وحمل لواء هذه النهضة في الغناء والشعر جماعة من النوابغ انتسبوا إلى الأزهر درجات متفاوتة من الانتساب. وظهر في هذه الفترة فنان موسيقي -وشاعر أيضًا- لا ينساه الموسيقيون العرب، ولا ينسون فضله في إحياء التراث العربي العريق في الغناء، وهو الشيخ محمد شهاب الدين، الذي ظل يبحث وينقب في الموشحات الأندلسية التي أوشكت أن تندثر، حتى جمع منها مئات مختلفة المقامات والإيقاعات، دونها في كتابه المعروف باسم (سفينة شهاب). وقد اطلع على هذا الكتاب وتعلم منه جميع فناني الغناء العربي الرواد في السنوات المئة الماضية.

تلاميذ شهاب:

وفوق (سفينة شهاب) عبر تلاميذه ومريدوه بحر الغناء البدائي، الذي كان قد حل في عصور التدهور القومي السالفة محل الغناء العربي الحضاري، بعد اندثاره على يد هولاكو عند تدميره بغداد، ثم اندثار ما تبقى منه عند سقوط غرناطة في أيدي القشتاليين في آخر القرن الخامس عشر، وانطواء صفحة العرب في الأندلس.

وأقبل جماعة من خريجي الأزهر أو ممن حضروا بعض دروس الأزهر، أو أخذوا عن الأزهريين بعض العلم، فأكثروا من تأليف القصائد والأزجال وتلحينها وإنشادها. وكان هؤلاء الطليعة التي أعادت الغناء العربي إلى أسلوبه الحضاري الأول، بعد أن طفت عليه الأغاني الغجرية والعثمانية والفارسية وغيرها مئات السنين، وأوشكت مقاماته وإيقاعاته وأساليبه أن تضيع، لولا ما بقي منها فيما استخدمه المغنون الشعبيون والفلكلوريون المجهولون، في أغاني الأفراح والأناشيد الحزينة في الحقول أو في الأعمال

الحرفية بالمدن، أو في إنشاد قصص أبي زيد الهلالي وما إليها.

وهكذا كان لهؤلاء المشايخ ذوي الفطرة الفنية الحساسة النابغة أكبر الأثر في رد الغناء العربي في أسلوبه الكلاسيكي أو الحضاري الذي كاد يندثر. وارتبط عملهم العظيم في هذا المجال بالنهضة الشاملة في الشخصية القومية للأمة. وكان فضل هؤلاء الفنانين المشايخ على الغناء، قريب الشبه بفضل محمود سامي البارودي على الشعر، وتحرر الغناء العربي من آثار عصور التدهور القومي التي عبثت بكل تراث عربي، فني أو أدبي.

ولا يثير دهشتنا الآن ارتباط نهضة الغناء العربي بنهضة الشعر العربي في زمن واحد، فإن الغناء -كما أسلفنا- هو قرين الشعر عندنا نحن العرب. كما لا يثير دهشتنا أن المشايخ هم الذين أنهضوا الغناء وأنهضوا الشعر معًا، فإن المشايخ كانوا خلاصة مثقفي الأمة الغيورين على تراثها القومي. وإذا تذكرنا اليوم أساتذة البارودي في الشعر والأدب، قلنا - بلا حرج ولا مغالاة - أن البارودي (المطربش) كان شيخًا بتخرجه في الأدب والشعر على أيدي الأزهريين وكتبهم.

الحامولي وشيوخه:

وإذا استقصينا ما صنعه الفنانون المنتسبون بثقافتهم إلى الأزهر، في مجال نظم الأغنية وتلحينها وغنائها، فضلًا عن تلحين القطع الموسيقية، من بشارف ودواليب وسماعيات ولونجات وتحميلات، لما اتسعت لنا هذه الصفحات، فلعلنا نقنع باستعراض سريع ولكنه شامل بقدر الإمكان لهؤلاء الفنانين وأعمالهم. وقد نبلغ هدفنا هذا إذا بدأنا بأكبر مطرب عرفه العصر الذي بلغ فيه الفنانون المنتسبون بثقافتهم أو زيهم إلى الأزهر، قمة في

النضج الفني ما زالت تثير إعجابنا كلما سمعنا ما تنشده فرقة الموسيقى العربية من تراث هؤلاء الفنانين الموهوبين.

كان عبده الحامولي أكبر مطربي ذلك العصر الذهبي - منذ مئة عام تقريبًا - ولم يكن أزهريًا بنشأته، ولكنه اكتسب علمه ورهافة حسه من الأزهريين، وغنى أشعارهم وألحانهم، فنظم له أغانيه عدد من المشايخ، من بينهم الشيخان علي الليثي وعلي أبو النصر - وكانا من أشهر أهل زمانهما - والشيخ عبد الرحمن قراعة مفتي مصر حينئذاك، والشيخان محمد الدرويش وأحمد وهبة، وكانا من أشهر مؤلفي الأغاني.

وقد ألف الأغاني ولحنها لعبده الحامولي شيوخ آخرون، مع أن الحامولي نفسه كان من أكبر الملحنين؛ لأن الفن كان مرتبطًا بأولئك الفنانين الذين انتزعوا بأعمالهم الفنية الكبيرة احترام مجتمعهم، فانضم إليهم في التأليف للحامولي، اثنان من أشهر بشوات العصر، وهما محمود سامي البارودي وإسماعيل صبري.

الشيخ المسلوب:

وممن لحنوا للحامولي الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب، الذي كان في عصره من أعظم الملحنين. وقد تعلم في الأزهر ثم اشتغل منشدًا في الموالد، ولما نضجت موهبته اتجه إلى الغناء والتلحين، وبرع في تلحين التواشيح، حتى قيل إن أحدًا من الملحنين لم يبلغ مستوى الأندلسيين في تلحين التوشيح كما بلغه الشيخ محمد المسلوب. وأشهر ما بقي لنا من تواشيح الشيخ المسلوب، توشيح (لما بدا يتثنى)، الذي يعتبر مثالًا في دقة الصنعة وحلاوتها وسهولتها وامتناعها. وقد جمع هذا التوشيح صورًا كثيرة

للموسيقى والغناء العربي، ويتمثل في صيغته أو (فورمته) أرقى ما بلغته الموسيقى الأوروبية، وهي صيغة (الروندو). ويتفق تكوينه الفني مع الموسيقى العربية في الوقت نفسه اتفاقًا سليمًا، وتتمثل في نغماته وإيقاعاته مقدرة الشيخ المسلوب الفائقة، حتى لقد ذهب بعض من هالتهم دقة وحلاوة هذا التوشيح إلى القول بأنه من التواشيح الأندلسية القديمة لا من تلحين الشيخ المسلوب. ولكن (الأدوار) التي لحنها الشيخ المسلوب لا تقل روعة عن تواشيحه، فهل كانت هذه الأدوار أيضًا من تلحين الأندلسيين؟!

الشيخ المنيلاوي ورفاقه:

وكثر بعد انقضاء أيام الحامولي أهل الفن من ذوي النسب القريب إلى الأزهر أو النسب البعيد، فكان من بينهم مطربون وملحنون وعازفون على العود والقانون والناي. ووثب إلى قمة فن الغناء الشيخ يوسف المنيلاوي ذو النشأة الأزهرية، وقد غنى من ألحان الحامولي كما غنى من ألحان الشيخ المسلوب والمشايخ الآخرين.

واستفاد الشيخ المنيلاوي من غناء الألحان الكثيرة المتقنة التي خلفها الملحن الكبير محمد عثمان (توفي سنة 1900) لمطربي بدايات القرن العشرين، حتى نسبت بعض هذه الألحان إلى المنيلاوي، ولكن المنيلاوي كان حريصًا دائمًا على أن ينسب هذه الألحان إلى صاحبها رحمه الله، وهكذا كانت أخلاق ذلك الرعيل من الفنانين الأصلاء.

وعرف عصر المنيلاوي كثيرًا من المغنين والملحنين والعازفين البارعين، كالشيخ سيد الصفتي، والشيخ محمد الشنتوري، والشيخ خليل محرم،

والشيخ علي القصبجي (والد الملحن الكبير محمد القصبجي)، والشيخ أحمد إدريس. وبدأ (الأفندية) يتكاثرون بين المشايخ، فكان أشهر المطربين الأفندية عبد الحي حلمي، ومحمد أفندي سالم العجوز، الذي لم يكن أفنديًا إلا بالطربوش على رأسه، أما زيه فكان أزهريًا. وقد عاش الشيخ العجوز أو العجوز أفندي إلى سن المئة أو فوقها بعشر سنوات - كما يقال - ولبث طوال هذا العمر المديد يغني!

الشيخ سلامة:

وفي ظل هؤلاء الفنانين الموهوبين نشأ شيخ آخر ملأ صيته الآفاق هو الشيخ سلامة حجازي، الذي استبدل بالزي الأزهري زي الأفندية، ولكنه ظل يحمل لقب (الشيخ) إلى آخر حياته، وبعد حياته؛ لأن نشأته كانت دينية. وكان مؤذنًا في شبابه، فلما احترف الغناء أحدث فيه انقلابًا؛ لأنه لم يكتفِ بالغناء في الأفراح والحفلات الخاصة، بل أنشأ مسرحًا غنائيًا، ونقل الغناء من الصالونات والسرادقات إلى المسرح.

ولم يكن مسرحه في الحقيقة مسرحًا غنائيًا بالمعنى الفني الذي نعرفه الآن، بل كان مجرد اتجاه إلى المسرح الغنائي من ناحية الشكل، وبقيت ألحانه المسرحية على الوضع الفني القديم: مجموعة من الأدوار والأغاني، وكان يغني على المسرح كل ما يطلبه منه المتفرجون، بغض النظر عن سياق المسرحية وقصتها، فإذا طلبوا مثلًا ليالي ومواويل، قطع التمثيل وغنى لهم ما طلبوه حتى يكتفوا، ثم يعود إلى ما قطعه من مسرحيته وحكايتها.

الشيخ سكر والشيخ علي:

وبرغم ظهور (المسرح الغنائي) في ذلك العهد، فإن المشايخ استمروا

في مـذهبهم الغنـائي. بعـضهم كالـشيخ إسـماعيل سـكر اسـتمر في طريقـة (الإنشاد) في الموالد، وقد تتلمذ على يديه (مطربـون) اسـتفادوا مـن طريقتـه المحكمة في الإنشاد، كما تتلمذ على يديه ملحنون كـان مـن أبـرعهم وألمعهـم الشيخ زكريا أحمد.

وإذا كان الشيخ إسماعيل سكر هو إمام المنشدين في عصره، فإن الـشيخ درويش الحريري كان أستاذ الملحنين والمطربين، وقد تتلمذ على يديه كثير من الأصوات الرجالية والنسائية، وله (تركـة) لا بـستهان بهـا مـن الألحـان، ولكـن دوره الحقيقي كان دور الأستاذ لمطربي وملحني عصره.ويمكـن اعتبـار الـشيخ علي محمود امتـدادًا للـشيخ إسـماعيل سـكر في الإنـشاد، ولكـن الـشيخ عـلي محمـود غنـى أيـضًا واعتـبره معـاصروه مغنيًـا وملحنًـا، لا مجـرد منـشد أو (موالدي) بارع كسلفه الشيخ سكر. ومن يـستمع الآن إلى قـصيدة (يـا نـسيم الصبا تحمل سلامي) التـي سـجلها الـشيخ عـلي محمـود عـلى أسـطوانة قبـل أربعين عامًا يجد أن الشيخ علي محمود قد خطا إلى الغنـاء خطـوة، ولكنـه لم يقطع صلته بالإنشاد كما كان معروفًا عند الشيخ إسماعيل سكر.

وعلى يد الشيخ علي تتلمذ الكثـيرون مـن مطـربي وملحنـي العـشرينات والثلاثينات، بل تتلمـذ عليـه أيـضًا محمـد عبـد الوهـاب الـذي أصـبح زعـيم التجديد في الغناء العربي الحديث، وقطع كل صلة بفـن الإنـشاد القـديم. وفي عصر الشيخ علي كـان الـشيخ أمـين حـسنين أو (حـسانين) يحـاول أن يجـاري المطربين أكثر مما يجاري المنشدين، وتكاد بعض الأسـطوانات الباقيـة لنـا مـن الشيخ أمين حسنين توهمنـا بأنـه كـان مـن المطـربين (الأفنديـة)؛ لنزوعـه إلى

(التجديد) في بعض أغانيه نزوعًا شديد الوضوح. ويبدو أن السبب في ذلك أن عبد الوهاب كان قد سيطر على الأسماع بطريقته الجديدة، وكان لا بد لمن يريد أن يعيش في أسماع الناس، من مجاراة هذه الطريقة بما في وسعه!

ومع ذلك، بقيت طريقة الشيخ علي محمود في الإنشاد إلى اليوم عند المخضرمين، أمثال الشيخ محمد الفيومي الذي يغني لنا إلى اليوم أو ينشد بطريقة الشيخ علي، ويكاد أحيانًا لا يخرج عنها قيد أنملة، فتذكرنا جودة أدائه وحلاوة صوته بما كان في سالف الأوان من شيخه النابغة الموهوب.

الشيخ أبو العلا:

وللشيخ أبي العلا محمد صفحة خاصة في الغناء العربي خلال نهضته المعاصرة؛ لأنه كان أستاذ كوكب الشرق أم كلثوم في بداية حياتها الفنية. ومن المصادفات العجيبة أن قصيدة (وحقك أنت المنى والطلب)، التي لحنها وغناها الشيخ أبو العلا ناسجًا فيها على منوال عبده الحامولي، هي من تأليف الشيخ عبد الله الشبراوي الذي كان شيخًا للأزهر فترة من القرن الثامن عشر، وكانت له قصائد وتواشيح غناها مطربو عصره. وبعد أن غنت أم كلثوم هذه القصيدة وغيرها من ألحان الشيخ أبي العلا محمد، اتجه الشيخ إلى التدقيق في إقامه التوافق بين الكلام والألحان، فأخرج تحفته الرائعة: (أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا)، غنتها أم كلثوم منذ أربعين سنة، فكانت من أجمل الألحان التي تكامل فيها التوافق بين الشعر والغناء. فقد وضع الشيخ أبو العلا الكلام واللحن في وعاء واحد، وأتاح للصوت أن يستعرض كل قونه وجماله واقتداره. وعلى هذه الصورة الرائعة كان الغناء

العربي الأصيل فيما حدثنا به أبو الفرج الأصفهاني في كتابه (الأغاني).

وأسهم الشيخ أبو العلا -من خلال صوت أم كلثوم - في تخليص الغناء العربي نهائيًا من العجمة العثمانية والفارسية والغجرية، التي عبثت بحناجر المطربين والمطربات في مصر والبلاد العربية مئات السنين.

ولم تكن هذه الوثبة الفنية في الغناء العربي مستمدة من الغناء الأوروبي، بل كانت قائمة على انبعاث الطريقة العربية الحضارية في الغناء، وكان صوت أم كلثوم من أهم العوامل التي جعلت نجاح هذه الوثبة مؤكدًا ولا جدال فيه.

الشيخ سيد درويش:

ولا داعي بطبيعة الحال للإفاضة في الحديث عن الشيخ سيد درويش، حسبنا أن نقول عنه في هذه الصفحات أنه لم يدخل الأزهر، ولكنه تعلم في الكتاتيب التي كانت تعد تلاميذها للالتحاق بالأزهر. وارتدى العمامة والقفطان وعاش إلى أخريات حياته شيخًا بالاسم والمظهر، ولم يتطربش ويتفرنج في ثيابه إلا في السنوات القلائل الأخيرة من حياته القصيرة الحافلة.

كان الشيخ سيد درويش موهوبًا بكل معنى الكلمة، فاستوعب في عمره القصير تراث الغناء، وصنع مئات من الأدوار والتواشيح والطقاطيق والمونولوجات، ما زالت تحير سامعيها بدقة صنعها وجمال تركيبها، وقد أتم سيد درويش أكثر هذه الأعمال الفنية العظيمة التي توجها بألحانه المسرحية، وهو دون الثلاثين من عمره، ولما مات قبل أن يبلغ الثانية والثلاثين، كانت غزارة إنتاجه تلحينًا وغناء قد ساوت بينه، من حيث

الكم، وبين من عاشوا إلى ما بعد الستين من ملحني عصره، وتفوق على الكثيرين منهم بموهبته غير العادية وابتكاراته.

ولم يكن سيد درويش بلا أساتذة كما يتصور بعض محبيه ومريديه؛ لأنه علم نفسه بالاستماع إلى ألحان كبار الملحنين، كما استفاد من الشيخ علي إبراهيم ضارب الدف، أو (الرق) الذي كان حجة في الأدوار والموشحات، بصيرًا بالإيقاعات والمقامات، فألحقه سيد درويش بفرقته وتلقن منه كل ما استطاع أن يتلقنه، وأضافه إلى محصوله القديم من ملحني مصر والشام.

وممن يذكر في مجال العلم بالأدوار والتواشيح والإيقاعات والمقامات الشيخ محمود صبح، الذي عاش إلى بداية الأربعينات وكان فضلًا عن كونه حجة في العلم بالألحان، صاحب صوت من أوسع الأصوات مساحة.

الشيخان زكريا والقصبجي:

بقي شيخان هما: زكريا أحمد ومحمد القصبجي، كلاهما لبس العمامة والقفطان، ونشأ في الأزهر أو على مقربة من الأزهر، ثم تحول إلى الفن وبرع فيه ووهب له حياته.

لم يُتَح لزكريا أحمد أن يمضي في دراسته الأزهرية إلا قليلًا، ثم انضم إلى بطانات المنشدين، ودخل في فرقة الشيخ إسماعيل سكر، وتعلم منه الكثير، ثم تتلمذ على يد الشيخ الحريري. واشتغل زكريا بالغناء والإنشاد والتلحين وهو بعد شيخ لم يتحول إلى زي الأفندية، ولما تحول إلى هذا الزي لم يفارقه لقب (الشيخ)، فعاش إلى آخر حياته يحمله سعيدًا به فخورًا. والشيخ زكريا الذي توفي منذ سنوات قلائل، كان بقية الرعيل الأول الذي

جدد الغناء العربي والموسيقى العربية، وكان في ألحانه أمة وحده، لا ينازعه طريقته أحد.

عاش زكريا أحمد في عصر التجديد العاصف الذي قاده عبد الوهاب وملحنو جيله، ولكنه لم يتزحزح عن طريقته، فلحن بها لأم كلثوم وأصوات أخرى كثيرة، وكان وسط ذلك التيار العاصف من التجديد ممثلًا لفن التلحين العربي في أصالته.

أما الشيخ محمد القصبجي الذي خلع العمامة والجبة ليدخل في زمرة الملحنين الأفندية، وهو بعد شاب صغير، فقد كان ميله إلى التجديد في الغناء العربي واضحًا، بل كان من أوائل دعاة التجديد، ويعتبر مونولوج (إن كنت أسامح) الذي لحنه لأم كلثوم قبل أربعين عامًا أعلى صيحة للتجديد الغنائي في ذلك العهد.

وبعد أن نجح هذا اللحن نجاحًا هائلًا، واصل القصبجي النسج على منواله في التجديد، فلحن لأم كلثوم مجموعة كبيرة من أجمل أغانيها، انتهت بأغنية (رق الحبيب) التي لحنها سنة 1946، ثم توقفت قريحته عن التلحين على هذا المستوى الرفيع، الذي عرف به خلال أكثر من عشرين عامًا، لحن خلالها لأم كلثوم ومنيرة المهدية وفتحية أحمد وليلى مراد وأصوات أخرى كثيرة.

بقي أن نقول أن هؤلاء الفنانين الكبار الذين انتسبوا إلى الأزهر تمكنوا من إعادة (تعريب) الغناء العربي، فإن العجمة الطويلة التي رانت على الأمة العربية في ماضيها، اقتضت حملتين من حملات (التعريب)، إحداهما في الغناء، والأخرى في الشعر والأدب والثقافة. وقد تمت

الحملتان معا بفـضل الأزهـريين، والفنـانين الـذين كـانوا في الأصـل مـن أبنـاء الأزهر أو من القـريبين إلى الأزهـر وأبنائـه، ومـا زلنـا نـسمع مـنهم الـشيخين النقشبندي وسيد مكاوي.

وقد ذكرنا في هذا العرض السريع كثيرًا من هؤلاء الفنـانين الـرواد، ولكـن هناك أسماء غابت عنا أو لم نتذكرها، حسبهم أن أعمالهم الفنيـة قـد دخلـت تاريخ بلادهم، وشاركت في إنهاض فن عريق من فنون الأمة العربية.

الأَزهر قلعة الوطنية المصرية

الأستاذ/ صبري أبو المجد

من أبرز مميزات الحركة الوطنية المصرية التي نبتت في نهاية القرن التاسع عشر، واشتد ساعدها مع مطلع القرن العشرين، أنها كانت لجميع أبناء الشعب على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم. وكانت تعتمد على كل فئات الشعب المسلم والمسيحي، الشاب والكهل، الغني والفقير، العامل والصانع، التاجر والزارع، الطالب والموظف. وكانت قيادات هذه الحركة كما كانت جماهيرها تؤمن إيمانًا صادقًا بأن الدين الله، والوطن للجميع.

بذل الاستعمار البريطاني الجهد والمال والنفوذ؛ للإيقاع بين أبناء الوطن الواحد تنفيذًا لمبدئه الأساسي (فرق تسد) فلم يستطع. حيث لم تمكنه جماهير الشعب من تحقيق مخططاته. لقد كانت جماهير الشعب تؤمن بصدق إحساسها، ودقة مشاعرها، وعمق وعيها، أن الاستعمار لا يبغي من وراء التفرقة بين أبناء الوطن الواحد إلا استمرار سيطرته واحتلاله، واستغلاله لمصر ولشعب مصر. وكانت هذه الجماهير - بما فطرت عليه من وطنية صادقة وإيمان خالص - تعتقد أنه لا نجاح لأية حركة وطنية إلا بوحدة وقوة وتماسك الجبهة الداخلية.

ومرة لاحت للاحتلال فرصة ذهبية للإيقاع بين المسلمين والمسيحيين عندما اغتال إبراهيم ناصف الورداني (من شباب الحزب الوطني) في الساعة

الواحدة بعد ظهر يوم 20 من فبراير 1910 بطرس غالي باشا ناظر النظار، واعترف الورداني فور تسليم نفسه لرجال البوليس، كما جاء في محضر التحقيق الذي نشرته صحيفة (الجريدة)، التي كان يصدرها وقتئذ الأستاذ أحمد لطفي السيد، أنه اغتال بطرس باشا غالي "لأنه وقع اتفاقية السودان عام 1899، التي أشركت بريطانيا في حكم السودان، ولأنه رأس المحكمة المخصوصة التي حاكمت أبناء دنشواي، ولأنه أعاد قانون المطبوعات الذي كمم الصحافة وقضى على حريتها، ولأنه عاكس الجمعية العمومية التي كانت تنظر مشروع امتياز قناة السويس الذي كان يؤيده بطرس باشا، ولأنه يحارب الوطنية المصرية".

ولأن القاتل مسلم، القتيل قبطي، فقد استغل الاستعمار البريطاني الفرصة للإيقاع بين عنصري الشعب، وأقام مؤتمرًا طائفيًا، ولكن المؤتمر فشل، وأقام المصريون مؤتمرًا آخر باسم (المؤتمر المصري) كتب له التوفيق، فقد راح المستنيرون من أبناء البلاد من المسيحيين والمسلمين، يبذلون جهدهم لحماية الجبهة الداخلية، وتفويت الفرصة على المحتل. وكان ممن اشتركوا في تلك الحملة الأستاذ نصيف المنقبادي، الذي كتب خطابًا تاريخيًا إلى رئيس تحرير جريدة الأكلير الفرنسية، يقول فيه: اسمح لي بصفتي مصريًا أن أقرر بعض نقاط تتعلق بمقتل بطرس باشا غالي رئيس الوزارة المصرية، ليس من اختصاصي تقدير عمل إبراهيم الورداني، ولكني أريد أن أبدد التهم التي أشاعها الإنجليز في العالم، فقد أتهموه بأنه (مختل الشعور)، (قليل الذكاء)، وأنه (أطاع داعي التعصب بقتله بطرس غالي المسيحي، الذي يقولون إنه كان حرًا ووطنيًا)، أنا أعرف الورداني شخصيًا، وهو فتى

شديد الذكاء كثير المعارف، ملء صدره الوطنية الحرة، وليس رجلًا متعصبًا، ولم يقدم على عمله إلا بداعي الوطنية المتحمسة، بعد أن ضاق صدره كما ضاقت صدورنا جميعًا بالسياسة الإنجليزية، التي كان بطرس باشا ينفذها باجتهاد. وأنا بصفتي قبطيًا، أعني مصريًا مسيحيًا، أصرح بأن حركتنا هي حركة وطنية مجردة ترمي إلى الترقي والحرية، وما تهمة التعصب إلا من الإشاعات التي يشيعها الإنجليز لتبرير المظالم التي يرتكبونها في مصر.

وتفشل المؤامرات البريطانية وتبقى الوحدة الوطنية سليمة قوية، ويعمل المسيحيون إلى جانب المسلمين في الأحزاب، والمنظمات الوطنية. وعندما تعلن بريطانيا الحرب على القوى الوطنية إثر قيام الحرب العالمية الأولى، يكون المعتقلون المسلمون إلى جانب إخوانهم المسيحيين، وتكون منافي (مالطة) و(سيشل) وغيرهما للمسلمين المصريين وللمسيحيين المصريين في وقت واحد.

وتقوم ثورة 1919 ويشترك فيها المصريون جميعًا تحت شعار (وحدة الهلال والصليب)، ويوجه أحد قادة الإنجليز اللوم إلى نجل بطرس باشا غالي قائلًا: (كيف تضع يدك في يد من قتلوا والدك؟" فيرد قائلًا: (أضع يدي في يد من قتلوا والدي، ولكني لا أضع يدي في يد من قتلوا وطني".

الأزهر قلعة الوطنية المصرية:

لقد كانت ثورة 1919 مختمرة في قلوب المصريين، لما لاقوه من الاحتلال البريطاني وخاصة في سنوات الحرب العالمية الأولى، فلم تكد تنتهي تلك الحرب حتى بدأت الطلائع الوطنية المصرية تتأهب للمطالبة

بحقوق البلاد، ولم تكد السلطات البريطانية تعتقل بعض قادتها، وعلى رأسهم سعد زغلول، حتى هب الشعب على بكرة أبيه يعلن الثورة على الاحتلال.

ومنذ 9 مارس بداية الثورة، والأزهـر حـصن الثـورة الحـصين، إليـه تتجـه جماهير الشعب، وفي حرمه يلتقون، ومـن فـوق منـبره يـستمعون إلى خطبـاء الثورة، وهم يحرضون الشعب على الثورة ضـد الاحـتلال. في اليـوم الثـاني مـن أيام الثـورة (10 مـارس) أذاع الطلبـة المنـشور التـالي: "غـدًا الثلاثـاء سـتتحرك المظاهرة السلمية الكبرى في الساعة العاشرة صباحًا من الأزهر الشريـف، مـارة بالأحياء الوطنية، تتقدمها الموسيقى برياسة حسب اللـه والأعلام، حتى تكون الساعة الثانية عشرة تمامًا أمام قصر العينـي، وهنـاك ينـضم إليهـا فريـق مـن المحامين والأطباء والعلماء والمعلمين والموظفين وطلبة المدارس العالية، الـذين يسرهم أن يكونوا مثالًا عاليًا للشعب".

ومنذ فجـر اليـوم التـالي لإذاعـة هـذا المنـشور، كانـت جماهـير الـشعب تزحــف إلى الأزهــر، وكــان العلــماء وطــلاب الأزهــر يــستقبلون الجماهــير ويجلسونهم في أماكنهم في نظام رائـع، ومـن فـوق منـبر الأزهـر كـان خطبـاء الثــورة يلقــون خطــبهم الناريــة، التــي تحــرض الــشعب عــلى الثــورة. وكان من بين هؤلاء الخطبـاء: الـشيخ مـصطفى القايـاتي، والـشيخ عـلي سرور الزنكلوني، والشيخ محمود أبو العيون، والشيخ عبد ربه مفتاح، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز، والشيخ عبد الباقي سرور، وكلهم من علماء الأزهر.

ثم القمص مرقس سرجيوس، والقمص بولس غبريال، ومحمد أبـو شـادي

بـك، ومحمـد كامـل حـسين، ومحمـد لطفـي المـسلمي، ويوسـف الجنـدي، وإبراهيم عبد الهادي، وحسن يس، ومحمـد يوسـف، ومحمـود عبـد الـسلام، ومحمد شكري، ومحمد عبد المجيد بدر، ومحمد أمـين صـدقي، وزكي مبـارك، ومحجوب ثابت، وأمين الخـولي، وأحمـد أمـين وغـيرهم، وغـيرهم مـن شـباب الأزهر والمعاهد العليا، والمدارس الثانوية.

ويصبح الأزهـر، كـما يقـول أسـتاذنا عبـد الـرحمن الرافعـي مكانًـا عامًـا للخطابة، وهو المكان الفسيح الـذي لم تـستطع الـسلطة العـسكرية اقتحامـه ومنع الاجتماعات فيه؛ وذلك لمكانته الدينية، فكان ميدانًا تبارى فيه الخطبـاء من كل الطبقات، وقد ظهرت فيه شخصيات برزت بمواهبها الخطابية.

سرجيوس يخطب في الأزهر:

ووقف مرة على منبر الأزهر القمص سرجيوس بملابـسه الكهنوتيـة -كـان أول كاهن قبطي يعتلي منبر الأزهـر - وبـدأ يخطـب بلهجـة حماسـية رائعـة أثارت انتباه الحاضرين، وقال: كنت أسير يومًا في شـارع كلـوت بـك فوجـدت أطفالًا يلعبون أمام منزلهم، فتحدثت معهم حديثًا قالوا لي بعـده: إن أمنـا في المنزل وهناك بعض الجنود يعتدون عليها، فعجبت لأمـرهم، وسـألتهم: كيـف ذلك؟ قالوا: وماذا نفعل؟ فـصعدت إلى المنـزل فوجـدت امـرأة يعتـدي عليهـا جنود إنجليز. أتدرون من هؤلاء الأطفال ومن هي هذه الأم؟ فقال الجمهـور: لا. وقال سرجيوس: هم فئة الموظفين، والأم هي مـصر! عندئـذ ثـار الموظفـون المصريون، فقال لهم: "إذن أظهروا شعوركم حيال أمكم مصر".

وكان أن قـرر الموظفـون الإضراب احتجاجًـا عـلى الـسياسة الاسـتعمارية البريطانية، وكان الموظفون في بداية الثورة قد اكتفوا بتوقيع عرائض الاحتجاج على اعتقال سعد وصحبه، ورفعها إلى السلطان، وكـان اسـتمرارهم في عملهـم رغم الغليان الشعبي مثار دهشة بالغة. وكانت بريطانيا تبـذل مـع المـوظفين محاولات معينة لضمهم إلى صفوفها، غـير أن كـل تلـك المحـاولات قـد بـاءت بالفشل، فقرر الموظفون الإضراب في 2 أبريل لمدة ثلاثـة أيـام، غـير أن انـدفاع الحركـة الـشعبية وشـمولها لكـل جماهـير الـشعب قـد مـدت في أجـل ذلـك الإضراب ثلاثة وعشرين يومًا.

ويروي القمص سرجيوس قصة ذهابه إلى الأزهر للاشتراك في ثـورة 1919، فيقول: "عندما كنت بالسودان أنشأت مجلتي (المنارة المصرية)، وجعلت منها متنفسًا لآرائي التقدمية، وكانت هـي والخطـب والعظـات التـي ألقيتهـا مثـار إعجاب شديد، ونقد أشد.

وفي ذات يوم استدعاني مستر مور مـدير الخرطـوم وقـال لي: إن الحـاكم العام للسودان يطلب إليك أن ترحل في خلال أربع وعشرين ساعة.

فقلت له: أنا لست في لندن حتى يأمرني الحاكم العـام بمغـادرة الـبلاد في أربع وعشرين ساعة، أنا هنا في بلادي وليرحل هو إذا شاء.

فقال: لا تحرجني يا سرجيوس ونفذ الأمر.

فقلت: إن الطريقة التي تستطيع بها تنفيذ الأمـر، هـي أن تـضع القيـود في يـدي، وتخرجنـي مـن بـلادي في الجنـوب قـسرًا حتـى أشـهد العـالم عـلى استبدادكم.

وعمد الرجل إلى الملاينـة فقلـت لـه: إننـي أريـد أن أعـرف الـسبب أولًا.

فقال لي: لو قلت لك السبب هل تعطيني كلمة شرف تعد فيها بمغادرة البلاد؟ ولما وافقت قال لي: أنت بطبعك تنزع إلى الحرية، ونحن نحكم هذه البلاد بالسيف، ولهذا فإن طبيعتك لا تلائمنا، وسوف نتعبك وتتعبنا!

وعدت إلى مصر في سنة 1915 وقبعت في بلدتي جرجا، حتى شب أولادي، فأردت أن ألحقهم بالمدارس واضطررت للسفر إلى العاصمة، واخترت لمقامي مسكنًا في حي الفجالة. وظلت حياتي موزعة بين الدراسة والوعظ والعبادة، حتى أحد أيام 1919 وكنت قابعًا في بيتي عندما سمعت ضجيجًا وصخبًا في الشارع، ولما تبينته وجدته مظاهرة من الشباب تهتف "يحيا سعد، يحيا الاستقلال" ولما سألت عن السبب قيل لي إن المستعمرين قد اعتقلوا سعد زغلول الذي يطالب بالاستقلال التام، وهنا تدفقت الدماء حارة إلى رأسي، وكأنما براكين الدنيا كلها قد تفجرت في نفسي، فأسرعت إلى الشارع وانضممت إلى المتظاهرين، حتى انتهت بنا المظاهرة إلى الأزهر، وكان في تلك الفترة حصن الثورة الحصين وألقيت فيه عصا الترحال.

وظللت قرابة ثلاثة أشهر ألقي في كل يوم ما لا يقل عن خمس خطب بعد انقضاء الصلوات الخمس، وكنت قبل أن أتهيأ للخطابة أذكر كلمات الإنجليزي الذي طردني من السودان وأقول لنفسي: من يكره الحرية أكرهه، ومن يحاربها أحاربه. ولم أترك شارعًا أو مسجدًا أو كنيسة إلا خطبت فيها داعيًا لتعبئة الشعور ضد أعداء البلاد، وحينما احتاج الوفد للمال صحبت فتح الله بركات في جولة بين القرى، وكنت أظل الخطب في أهلها حتى أحس أن المستمعين قد وصلوا إلى مرحلة التضحية بأموالهم، فأشير

إلى فتح الـلـه، وكان يحمل حقيبة كبيرة كحقيبة القومسيونجية، فيفتحها أمام المستمعين وإذا هي تمتلئ في لحظات.

وذات يوم كنا في ميدان الأوبرا، وكان أكثر من عشرين ألفًا قد وقفوا صامتين كأن على رؤوسهم الطير، يستعدون للاستماع إلى خطابي، وصعدت على أكتاف طالبين، وفي وسط هذا الصمت الرهيب بدأت خطابي قائلًا: اهتفوا معي: يحيا الإنجليز، وبهت الجمع الحاشد لهول المفاجأة، وعدت أقول: لن أخطب حتى تهتفوا يحيا الإنجليز، الذين استطاعوا بظلمهم واستبدادهم وفجرهم أن يجعلوا منا هذه الكتلة الموحدة المقدسة الملتهبة. وصفق الجميع تصفيقًا يصم الآذان".

ومرة أخرى، هكذا يمضي القمص سرجيوس في ذكرياته عن ثورة 1919، فيقول: "كنت في السرادق الضخم الذي أقيم لسعد زغلول، تكريمًا له بعد عودته من المنفى، وكان زعيم الوفد في أوج عظمته ومجده، وأخذت الجماهير تنادي: سرجيوس سرجيوس سرجيوس، ووقف سعد (رحمه الـلـه) قائلًا: "فليسمعنا خطيب الثورة كلمته".

وصمت الجميع، ووقفت أخطب فقلت: والـلـه إنك لمجنون يا سعد، وبهت الجميع، ولكنني استطردت قائلًا: والـلـه إنك لمجنون يا سعد إذ تقوم على دولة عظمى خرجت منتصرة من حرب عظمى، وتملك كل شيء ولا تملك أنت شيئًا، ثم تنتصر عليها! وفي كل مقطع من خطبتى كنت أكرر (والـلـه إنك لمجنون يا سعد)، وفي نهاية الخطاب قام سعد من مكانه واحتضنني قائلًا: مجنون والـلـه يا سرجيوس، وضجت الجماهير بالهتاف والتصفيق.

وذات يوم استدعاني كين بويز مدير الأمن العام، وقال لي: أنت عدونا الأكبر. وبت ليلتي في ثكنات قصر النيل نزيل غرفة جمعت في أحشائها كل أنواع البعوض والبق والبراغيث والفئران، وفي الصباح اقتادوني إلى أحد المعتقلات في رفح، وكان يزاملني فيه النقراشي، والقاياتي، وأبو شادي، والخولي، وغيرهم.

وهناك عكفت على قراءة القرآن ودراسة كتب التفسير، كما قرأت للرازي والنسفي والبيضاوي وتفسير الجلالين، والملل والنحل وغيرها، وذات يوم كنا نقف مع ضابط المعتقل فقال: إن المصريين المتوحشين قد قتلوا جنديين بريطانيين اليوم، ورد عليه أحد المعتقلين قائلًا: هذا أمر مؤسف.

فاندفعت أنا قائلًا: إن قتل جنديين بريطانيين يعد وحشية، وقتل الصبيان المصريين وحصدهم بالمدافع الرشاشة لأنهم يطالبون بالاستقلال هل هو في نظركم مدنية؟! وحقد علي الضابط الإنجليزي، ولذلك ظللت في المعتقل حتى أغلقته وجئت بمفاتيحه إلى القاهرة، وكان ذلك في سنة 1920، ثم صدر قرار بنفيي من القاهرة إلى بلدتي جرجا، ولكن نسيم باشا وزير الداخلية وقتئذ رفض تنفيذ أمر النفي، وقال: كيف أنفي رجلًا وصلتني ست زكائب احتجاجات من أجله من المسلمين والأقباط؟!"

ومن مذكرات القمص سرجيوس عن ثورة 1919، أن ضابطًا بريطانيًا قال له: لقد صبرنا عليك أربعين يومًا وأنت تخطب ضدنا في الأزهر.

وأجاب سرجيوس قائلًا: إذا كنت أنت لم تحتملني في بلادي 40

يومًا، فكيف احتملناكم نحن في بلادنا أربعين عامًا؟!

ومما يذكر أن الكثير من أبناء الشعب كانوا يطلقون على سرجيوس لقب خطيب الثورة، ولقب (خطيب الأزهر).



مكتبة الأزهر .. منارة العلوم الإسلامية والإنسانية

الأستاذ /عاطف مصطفى

مكتبة الأزهر من أشهر المكتبات في العالم، يعرفها الباحثون والعلماء من الشرقيين والغربيين على السواء، احتفظت على طول العصور بقيمتها التاريخية؛ لأنها ضمت نفائس الكتب ونوادر المخطوطات، ففيها ما ليس في مكتبات الأستانة والقيروان وبغداد، وهي زاخرة بما تحويه من إنتاج أفكار العلماء المسلمين، الذين ضربوا بسهم وافر في المعرفة والثقافة الإسلامية، يسير طالب العلم بين جوانبها فيحار فيما جمعته تلك المكتبة من أندر المخطوطات التي لم تتوفر لغيرها من المكتبات، ورغم تعرض هذه المكتبة للسرقات المتكررة، وبيع كتبها ومخطوطاتها بأبخس الأثمان، إلا أنها ما زالت تحتفظ بكنوزها الوافرة ونوادرها القيمة.

وقد عني الإسلام بتكوين المكتبات، وممن عني بذلك أهل مصر، ومن أشهر مكتباتهم القديمة مكتبة الإسكندرية، التي أسسها بطليموس الأول في القرن الثامن قبل الميلاد، ويقال إن عدد الكتب بهذه المكتبة قد وصل إلى أربعمئة ألف مجلد.

وأول من أنشأ مكتبة في العصر الإسلامي هو خالد بن يزيد الأموي في دمشق، وبأمره ترجمت كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية إلى العربية، كما أسس هارون الرشيد مكتبة ببغداد جمع فيها ما وجده من الكتب النفيسة، ثم وسعها المأمون وسماها (بيت الحكمة)، واهتم بها من

حيث ترتيب خزائنها وتبويب فهارسها؛ واهتم المأمون بمراسلة الملوك في شأن الكتب، وكان يضع في شروط معاهداتهم تقديم الكتب له باللغات التي اشتهرت في ذلك الوقت.

وقد أسند الإشراف عليها إلى كبار العلماء والأدباء، وممن تولى شؤونها الأديب سهل بن هارون.

كما أنتشرت المكتبات العامة في بغداد والشام والأندلس ومصر، واهتم الحكام في كل بلد إسلامي بإنشاء المكتبات، وصل إلى حد المنافسة في اقتناء الكتب وتقريب الأدباء إلى مجالسهم والاهتمام بأمورهم، وقد بلغ عدد المكتبات في غرناطة وحدها سبعين مكتبة.

وقد اقتدى الفاطميون بمصر بخلفاء بغداد والأندلس في إنشاء المكتبات والاهتمام بها، وتنشيط الحركة العلمية، فأنشؤوا مكتبة (خزانة الكتب)، ومكتبة (دار الحكمة)، ومكتبة (الجامع الأزهر)، ونالت المكتبات في ذلك الوقت اهتمامًا شديدًا من العزيز بالله، فكان يجري الأرزاق على العلماء والأطباء، ويهتم بكل ما من شأنه رفع الثقافة وزيادة المعرفة بين أهل مصر.

صراع من أجل البقاء:

ليست المكتبة الأزهرية الموجودة الآن هي مكتبة الأزهر القديمة التي أشار إليها المؤرخون في كتبهم، وإنما هي مكتبة حديثة قامت على إطلال المكتبة القديمة، فقد قال ابن ميسر في كتابه (أخبار مصر) سنة 517هـ إنه قد أسند إلى داعي الدعاة أبي الفخر صالح منصب الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب.

وقد ذكر المقريزي (خطط ج2 ص273، 275) إن الحاكم أمر

بنقل نصف الكتب التي كانت بدار الحكمة إلى الجامع الأزهر، والباقي إلى مسجده، ومسجد المقدس. ويتضح من هذا أن مكتبة الأزهر كانت تضم أكثر من خمسين ألف كتاب.

وقد وزعت معظم كتب مكتبة الأزهر على الأروقة، التي بلغ عددها زهاء الثلاثين رواقًا وزاوية، وأشهرها رواق الشوام والمغاربة والأتراك، والشراقوة والأروام، وآخرها الذي أنشئ قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل، وهو الرواق العباسي؛ وذلك لاطلاع الطلبة عليها، وخصص منهم من يقوم على هذه الكتب وحفظها.

ولكن اتضح أن كثيرًا من نفائس الكتب التي كانت مودعة بمكتبات الأروقة تسرب إلى أيدي علماء أوروبا ومكتباتها الشهيرة، وذلك عن طريق سماسرة الكتب الذين استغلوا الجهل والضعف الخلقي في نفوس بعض القائمين على هذه المكتبات في بعض الفترات.

وإلى جانب تسرب الكتب وبيعها بأبخس الأثمان، فقد أهمل البعض وترك في سراديب طعامًا سائغًا للحشرات، وتكومت فوقه الأتربة فتلفت أوراقها وبليت، ومزقت وقطعت جلودها، ولا يكاد يوجد منها كتاب سليم إلا ما ندر. كما أن الفرنسيين حينما اقتحموا الأزهر أثناء الحملة الفرنسية على مصر نهبوا كثيرًا من هذه الكتب التي ما يزال البعض منها بمكتبة باريس.

ولقد كان تعرض كتب الأروقة للضياع والتسرب إلى أيدي المتربصين بها ممن يعرفون أقدارها والذين تخصصوا في الحصول عليها وإرسالها إلى أوروبا، هو الذي أوحى للشيخ محمد عبده بفكرة إنشاء مكتبة الأزهر، بعد أن راعه أن هذه الكنوز العلمية مبعثرة لا يهتم بها أحد، وكان ذلك ضمن

برنامجه الإصلاحي للأزهر والذي أخذه على عاتقه، وقد تقدم الشيخ محمد عبده بفكرته هذه إلى مجلس إدارة الأزهر، فنالت الفكرة القبول من أعضائه، وبخاصة الشيخ حسونة النواوي شيخ الجامع الأزهر في ذلك الوقت، والذي وهب مكتبته الخاصة لهذا المشروع الجليل دون تردد؛ ليقتدي به الآخرون، واجتمع مجلس إدارة الأزهر لدراسة هذا المشروع وما لبث أن وافق عليه، واختار المكان المناسب لعمل مكتبة الأزهر. وكتب لديوان الأوقاف الذي كان يتولى الإشراف على شؤون الأزهر لإعداد تنفيذ هذه الفكرة، وتم تنفيذها فعلًا في أول المحرم سنة 1314هـ (1897م).

وقد لاقى الإمام محمد عبده كثيرًا من الصعاب في إقناع القائمين على الأروقة بفائدة مكتبة الأزهر، وضرورة تنفيذها حفاظًا للتراث الإسلامي من الضياع، وتجميعه في مكان واحد ليكون أكثر فائدة، وأعم نفعًا لطلاب الأزهر من كل بلاد العالم الإسلامي. ولم يكتف محمد عبده في تكوين المكتبة بما جمع من مكتبات الأروقة بل دعا الأغنياء والعلماء في المشاركة في تكوينها، مستعينًا في ذلك بمدى حبهم له ومكانته عندهم، فاستجاب البعض لذلك وعلى رأسهم الشيخ حسونة النواوي، وورثة سليمان باشا أباظة.

مكتبة مبعثرة:

ومكتبة الأزهر ليست مكانًا محدد المعالم، تستطيع أن تجد فيه بغيتك من قاعات مجهزة للقراءة، كافية الإضاءة، لكنها تشمل أماكن كثيرة، فهي تشغل أربعة أمكنة متفرقة داخل الجامع الأزهر، وهي المدرسة الأقبغاوية والمدرسة الطبرسية، ورواق الأحناف، والرواق العباسي. والمدرسة الأقبغاوية على يسار الداخل إلى الأزهر من بابه الغربي الكبير، وقد أنشأها

الأمير أقبغا عبد الواحد على نظم المدارس الإسلامية في ذلك الوقت، وفي المدرسة الأقبغاوية توجد المكتبة العامة بجميع فنونها التي تبلغ اثنين وستين فنًا. أما المدرسة الطبرسية فهي على يمين الداخل إلى الأزهر من بابه الغربي، وقد أنشاها علاء الدين طبرس نقيب الجيوش المصرية، وأتم بناءها سنة 709هـ.

وقد شغلت المكتبة أولًا المدرسة الأقبغاوية، وعندما ضاقت بالكتب ضمت إليها المدرسة الطبرسية حتى تستوعب الكتب الكثيرة والمخطوطات، التي أمكن تجميعها بعد جهود شاقة، بناء على اهتمام الشيخ محمد عبده بجمع التراث والاحتفاظ به لكل طالب علم. ومن أجمل ما تراه العين بمكتبة الأزهر تلك المكتبات الخاصة الملحقة بها، والتي أهداها أصحابها إلى راغبي العلم بالأزهر، وهذه المكتبات موضوعة في أماكن خاصة داخل المكتبة العامة، ومن هذه المكتبات الفرعية: مكتبة سليمان باشا أباظة، مكتبة الشيخ محمد بخيت المطيعي، مكتبة الشيخ الإنبابي، مكتبة الشيخ حسونة النواوي، ومكتبة الشيخ محمد حسنين البولاقي.. إلخ.

وبقيت مكتبات المغاربة والأتراك والشوام بأروقتها تحت إشراف أمناء يحافظون على ما تحويه من نوادر المخطوطات، وبخاصة مكتبة رواق المغاربة التي يوجد بها كثير من المخطوطات النادرة والكتب القيمة.

ربع مليون كتاب:

ومكتبة الأزهر بها ربع مليون كتاب ومخطوط وتشمل اثنين وستين فنًا، وهي ثاني مكتبة في مصر بعد دار الكتب، ويوجد بها أكبر مجموعة في العالم من التراث العربي الإسلامي، منها مخطوطات ثمينة لا توجد في أية مكتبة

سواها، برغم السرقات والإهمال الذي لحق بها حقبًا طويلة من الزمن، وبعض هـذه المخطوطـات بخـط مؤلفيهـا الكبـار، ولـو طبعـت هـذه المخطوطـات وتداولها الباحثون لغيروا رأيهم في كثير من مفكري العـرب والإسـلام، ولعرفـوا قدرهم فيما توصلوا إليه بثاقب علمهم، وغزير إنتـاجهم لـشتى النظريـات في الطب والفلك والرياضيات.

وليس أدل عـلى ذلـك مـن الأجهـزة العلميـة الفريـدة الموجـودة بمكتبـة الأزهر، ومنها أجهزة الرصـد الفلكيـة والتـي تـدل عـلى التفاعـل العميـق بـين الأزهر ومجالات العلم المختلفة، والتي تبلورت الآن بالأزهر في مراحل تطويره كخطوة على طريق طويل من الاستجابات لتطورات الحياة. وهذا الـربط يـتم عن طريق الكليات الحديثة بالأزهر، كالطـب والـصيدلة والهندسـة، بالإضـافة إلى تطوير المناهج بالكليات الأصيلة كاللغة العربية وأصول الدين والشريعة.

كنوز بمكتبة الأزهر:

وتضم المكتبة نوادر الكتب والمخطوطات في كثير من الفنون، من العسير أن نجدها في أي مكتبة أخرى؛ ذلك لأن مكتبة الأزهر ورثـت خلاصـة الثقافـة الإسلامية في الشرق، ممثلـة في مؤلفـات علـماء الجـامع الأزهـر بـصفة خاصـة وعلـماء الإسـلام بـصفة عامـة، فـالأزهر قبلـة العلـماء، وصـفوة النـابهين مـن المسلمين لأكثر من ألف عام مضت، وكان ولا يزال مصدرًا من مـصادر الثقافـة الإسلامية الرشيدة لراغبي العلم من كل بلاد العالم.

وفي المكتبة بعض مؤلفات السيوطي بخطه، وبعض مؤلفـات ابـن حجـر، وبها جزء من القاموس بخط مؤلفـه الفيروزبـادي، وبهـا نـسخةمن شرح ابـن بطال على البخاري، ولا تعرف هناك نـسخة أخـرى في جميـع مكتبـات العـالم

غيرها، وبها مخطوطات ترجع إلى نحو من ألف سنة مثل كتاب غريب الحديث لابن سلام، وكتاب البعث لابن داود السجستاني، ومن الكتب النادرة فيها كتاب رسوم دار الخلافة الذي نشر أخيرًا محققًا لأهميته.

وأهم ما يلفت نظرك بالمكتبة المصاحف المختلفة الأحجام والتي كتبت بماء الذهب، ومنها المصحف ذو الحجم الضخم الذي وقفه أقبغا صاحب المدرسة عام 740 هجرية، ومصحف شريف في تسع عشرة ورقة مهدى إلى المكتبة من عباس حلمي، ومصحف بالخط الكوفي مكتوب على رق الغزال يرجع تاريخه إلى أوائل القرن الرابع الهجري.

ويوجد أيضًا صندوق صغير غاية في الروعة ودقة الصنع به (ربعة قرآن) وهو باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهذا الصندوق من أندر روائع الفن الإسلامي الباقية حتى الآن.

هذا بالإضافة إلى مجموعات نادرة من المخطوطات في علوم اللغة والتاريخ والفلك، وبعضها يحتوي على (حواشي) بخط المؤلف نفسه. وإلى جانب هذه الكنوز الموجودة بمكتبة الأزهر، تمتاز المكتبة بوفرة في العلوم الدينية والعربية؛ وذلك لصلة المكتبة بالأزهر، وصبغته الدينية، ولأنها تكونت في الغالب من مكتبات العلماء الذين تنبع ثقافاتهم من معين ديني عربي.

تطوير المكتبة:

وقد كان للمكتبة الأزهرية حظ كبير من النشاط العلمي، ولزيادة الكتب وكثرتها ضم إليها الرواق العباسي؛ لكي تستوعب أكبر عدد من الكتب، وكذلك محاولة إنجاز فهرس المكتبة والذي طبع منه حتى الآن سبعة أجزاء والثامن تحت الطبع، وقد تميز هذا الفهرس باستيفاء البيانات عن

موضوعات الكتب مع ذكر مواليد المؤلفين ووفياتهم، وقد عني بالمخطوطات عناية خاصة، ولا سيما ما يتعلق بالناحية العلمية والفنية، وذلك ببيان ما عليها من سماعات وإجازات وتصحيحات وما فيها من نقوش وزخارف تمثل روح العصر.

ونشير إلى أن العناية بتصنيف وإعادة أبراز الكتب المجهولة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، من شأنها أن تلقي ضوءًا على الكثير من التيارات الفكرية التقدمية، التي تشيع لها الأزهر في فترات الاحتلال وفي عهود التخلف العثماني. وكان الأزهر مليئًا بأصحاب النزعات والأفكار التجديدية، والتي اهتم بعضها بالعلم في حد ذاته، فألفوا أهم المراجع في أبواب العلوم والمنطق والتفسير، واهتم بعضها الآخر بجوانب التجديد الاجتماعي.

شقيقات الأَزهر

الأستاذ/ محمد حسن

من أقدم وأشهر الجامعات الإسلامية في العالم، جامعتا القيروان والزيتونة في تـونس وجـامع القـرويين في المغـرب، وجامعـة عليكـرة في الهنـد، وكلهـا شقيقات للأزهر، وإن اختلفت الأعمار.

لم يقصر الإسلام رسالة المسجد على الصلاة، بل جعله مقام ذكر، ومـوطن تلاوة، ومعهد علم وثقافـة. وأول مـسجد في العـالم بنـاه النبـى محمـد (صـلى الـلـه عليه وسلم)، يوم هاجر إلى المدينة، وكان مخصـصًا للفريـضة، ومدرسـة يتعلم فيها المسلمون أمور دينهم ودنياهم، واقتـدى الخلـف بالـسلف، فبعـد الصلاة في المسجد تعقد الحلقات لدراسة علوم الدين والـدنيا، وتـدرس اللغـة والنحو والصرف والأدب وسائر العلوم.

وفضل علوم الإسـلام والعـرب عـلى العـالم لا ينكـر، وحلقـات الـدرس في المساجد هي النظام الجامعي الحق؛ لأنه يجمع بين الأستاذ وطلابه في جو من البساطة. وهكذا فإن الجامع الإسلامي، جامعة بأحدث ما تحمله الكلمـة مـن معنى!

أقدم جامعة:

دخل العـرب تـونس سـنة 670 ميلاديـة، وأنـشؤوا مدينـة القـيروان، وفي السنة التالية (أي بعد وفاة النبى عليه الـصلاة والـسلام بنحـو 38 سـنة) بنـى

القائد العربي عقبة بن نافع مسجده الجامع هناك؛ ليؤمه طلاب العلم من المشرق والمغرب. وقد أنشئ بالقيروان معهد لدراسة الطب والرياضة والصيدلة، وأطلق على المعهد اسم (بيت الحكمة)، وقام أساتذته بنشر العلوم في حوض البحر الأبيض وأوروبا، وأصبحت مدينة القيروان هي عاصمة المسلمين في أفريقيا.

وفي العصر العثماني لم يكن يسمح لغير المسلمين بدخول القيروان، مدينة الأربعمئة مسجد بمآذنها وقبابها، غير أن المسجد الجامع هدم وأعيد بناؤه خمس مرات، حيث تبادل البربر والرومان الإغارة على تونس، والبناء الحالي يرجع إلى عهد الأغالبة في القرن الثالث الهجري.

وفي سنة 72 ميلادية، إثر فتوحات عبد الله بن الحبحاب وعبد الرحمن الغافقي، بنى الحبحاب جامع الزيتونة من الرخام المجلوب من أنقاض مدينة قرطاجنة المشهورة، غير أن تونس كانت في ذلك الوقت لا تزال عرضة للغزو الخارجي، بعد أن فقدت أسطولها الضخم الذي كان يسيطر على شواطئ غربي البحر الأبيض؛ لذلك كانت تحيط بالجامع أربع قلاع هي في الواقع أحد الحصون الألف المنيعة المنتشرة على ساحل البحر الأبيض من طنجة إلى الإسكندرية.

ولقد ظل جامع الزيتونة حصنًا، على منبره تلقى خطب الجهاد الوطني، من عهد عبد الله بن الحبحاب إلى عهد الحركة الوطنية، ومنه تخرج المظاهرات الوطنية ضد قوات الاحتلال.

يقول الدكتور صلاح العقاد في كتابه (المغرب العربي: دراسات تاريخه الحديث ومشاكله المعاصرة): إن مصادر الحركة القومية التونسية ترد في

الغالـب إلى أصـول إسـلامية بحتـة، وتتمثـل في المراكـز الإسـلامية العريقـة في تونس، وعلى رأسها جامع الزيتونة. وأحد أبنـاء هـذه المدرسـة الدينيـة، وهـو الشيخ محمد السنوسي، كان أول من قدم عريضة مطالبًا بالدستور، كما تخرج في هذه الجامعة الشيخ المكي بن عزوز، الذي كان له الفضل في تخريج الجيـل الأول من المناضلين التونسيين، وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز التعالبي، وكـان ابن عزوز يسير على نهج سلفه الوزير خـير الـدين، الـذي كـان لـه الفـضل في نشأة طبقة المجـددين، حـين أسـس مدرسـة الـصادقية سـنة 1875، لتـدريس العلوم الحديثة في إطار عربي إسلامي، وفي هـذه المدرسـة تخـرج رواد الحركـة الوطنية من أمثال بشير صفر، وعلي باش حميـة، ولقـد كـان مثقفـو الزيتونـة هم الذين أنشؤوا حزب التقدم، الذي تطور بعد ذلك إلى حزب تونس الفتاة - على غرار حزب تركيا الفتاة - ثم حزب الدستور، فالحزب الدسـتوري الجديـد، الذي رأسه الحبيب بورقيبة، وحـين زار الرحالـة المـصري محمـد ثابـت جـامع الزيتونة في الأربعينات، قال: "رأيت الطلبة منكبين عـلى المطالعـة والـدرس في أركان المسجد، فهو منهل للعلوم الإسلامية على طريقة الأزهر عنـدنا، ويتلقـى فيه العلم زهاء 300 طالب، وللغرباء فـروع (أروقـة) يـأوون إليهـا، ويخـصص لكل طالب أو اثنين غرفة، ويزيد عـدد تلـك الفـروع عـلى العـشرين. وتلحـق بالمسجد مكتبة قيمة حوت اثني عشر ألف مجلد. وللتونسيين اهتمام بمعاونة المنشآت العلمية، يوقفون عليها كثيرًا من أموالهم في سخاء كبير".

ولفهـم التطـور العلمـي لجامعـة الزيتونـة، لا بـد مـن إلمامـة سريعـة بالمذاهب الدينية في تونس:

جلب جند الشام المذهب الأوزاعي إلى تونس والمغرب والأندلس، وبعد وفاة الأوزاعي صارت تونس على المذهب المالكي الذي انتشر من القيروان إلى بقية المغرب، والصحراء والأندلس وفي فترة تالية ساد المذهب الحنفي، وكان أسد بن الفرات (فاتح صقلية) يدرس هذا المذهب بجامع القيروان، ولكن الشعب كان مالكيًا، وكان سحنون يدرس المذهب المالكي في جامع القيروان. أما البربر الضاربون في الجبال والصحاري، فمعظمهم على مذهب عبد الله بن الإباض.

ومع أن المذاهب ظهرت في تونس العاصمة مبكرة، فإن التعليم ظهر في القيروان مسبقًا، ولم ينتقل إلى جامع الزيتونة إلا في عهد دولة الموحدين. وكان التونسيون والصقليون المهاجرون وأشهرهم آل صقلي في الطب، والأندلسيون وأشهرهم ابن عصفور وابن القصار في النحو، والقلعاوي والأبلي والوادياشي في العلوم، هم الذين يقومون بالتدريس. وبعد سقوط إشبيلية جاء ابن خلدون، وابن سعيد، وابن أبي الحسن، والمالقي، وابن الآبار، وغيرهم.

واستعان الموحدون في التعليم بجامع الزيتونة أيضًا ببعض الليبيين، مثل أبي البركات عبد الحميد بن أبي الدنيا، وكانت العلوم الرياضية والطبيعة والفلك والكيمياء والطب والتاريخ والجغرافيا تدرس في جامعة الزيتونة، بالإضافة إلى علوم اللغة والدين. وقد ذكر العالم الشيخ محمد مخلوف في كتابه (شجرة النور الزكية في طبقات المالكية) طبقات الأساتذة والأئمة والعلماء الذين تخرجوا في الزيتونة ثم درسوا بها، ومن بين هؤلاء ابن خلدون، وابن عرفة، وابن راشد القفصي وماغوش وغيرهم.

وتحوي جامعة الزيتونة مكتبة ضخمة، أسسها أبو زكريا، مؤسس الدولة الحفصية، وأضاف إليها من جاء بعده من الخلفاء الموحدين أو من الأمراء المراديين والحسينيين، وكانت المكتبة عند تأسيسها تحوي نحو 40 ألف مخطوط، بقي منها اليوم 25 ألفًا، منها الفريد والنادر والنفيس، ومن أقدم المخطوطات تفسير ابن سلام القيرواني، وهو مكتوب على رق الغزال بالخط الكوفي الجميل، ويعتبر من أقدم التفاسير إن لم يكن أقدمها. وفي المكتبة كتب في السياسة والحرب والطب والتاريخ واللغة والفقه والحديث، ولها نظام للإعارة المحلية والخارجية.

وطراز جامعة الزيتونة يكاد يكون شاملًا للأنماط المعمارية الإسلامية، فيه الفن المغربي من أفريقي وأندلسي ومراكشي، وفيه الفن الفاطمي والعربي والتركي. والجامع الأول الذي بناه الحبحاب يجمع بين الفنون البيزنطية والإيرانية والعربية، القلعة بيزنطية، والصومعة المستديرة إيرانية، والنمط العام عربي يشبه جامع الكوفة. ومنبر الجامع يعتبر تحفة من الفن الإسلامي، صنع سنة 249 هجرية على نمط منبر القيروان، وهو في مقصورة إلى يمين المحراب، يخرج منها على سكة حين استعماله ثم يعاد بعد ذلك إلى مكانه.

وحول جامعة الزيتونة، أسواق بديعة تتعلق بمهام الجامعة: سوق الكتبيين - باعة الكتب - وسوق السفارين - المجلدين - وسوق الشهود العدول - المأذونين - الذين يستحضرون إلى داخل الجامع لكتابة العقود التي تبرم بعد أداء الفرائض للبيع والشراء والإيجار والزواج. وسوق الفضة التي تصنع فيها المباخر والمجامر و(المرشات)، والمراوح التي يتقى بها

المجتمعون داخل المسجد حر الصيف. هذا فضلًا عن سوق العطارين، وسوق الطيبيين وهم باعة العطور والبخور. تمامًا مثل أسواق العطارين والصاغة والغورية وغيرها، التي تحيط بالجامع الأزهر في القاهرة.

مهاجرو القيروان بنوا جامعة القرويين:

فى القرن الثامن الميلادي هاجر أكثر من ثلاثة آلاف من أهالي القيروان؛ هربًا من فظائع الرومان والبربر في بلادهم، وبالقرب من مدينة فاس استوطنوا (عدوة القيروانيين)، التي بسطت فيما بعد إلى (عدوة القرويين). من هؤلاء المهاجرين كانت السيدة فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري القيرواني، وحين توفي والدها ترك لها ثروة طائلة، أنفقتها كلها في بناء جامع القرويين سنة 802، على نمط جامع القيروان في بلادها، وتحول الجامع بعد ذلك إلى جامعة للدراسات الإسلامية، وقد ظلت فاطمة الفهرية صائمة، محتسبة إلى الله، حتى تم بناء المسجد، فصلت فيه شكرًا، وفي نفس الوقت قامت أختها مريم بعمل مماثل في جامع الأندلس.

ولم يبقَ جامع القرويين على حاله، فقد زاد فيه أحمد بن أبي بكر الزناتي عامل عبد الرحمن الناصر، فبنى الصومعة الموجودة الآن وأزال القديمة سنة 345 هجرية، ومن بعده زاد المنصور بن أبي عامر الحاجب فيه، ثم وسعه علي بن يوسف اللمتوني من دولة المرابطين. وفعل مثله ملوك دولة الموحدين وبنو مرين، فقد أنشأ السلطان أبو عنان فارس المريني حول القرويين عدة مدارس، وأسس مكتبة، وقام يوسف بن تاشفين بتأسيس مدرسة الصابرين، وبنى السلطان أبو سعيد عثمان بن عبد الخالق مدرسة العطارين، وشيد أبو عنان مدرسة البوعنانية. وكل هذه المدارس تابعة

لجامعة القرويين.

وفي رحاب هذه الجامعة بدأت الدراسات الأولية في اللغة العربية والدين والشريعة، وذاع صيتها، فتوافد عليها العلماء من كل قطر، وفي فاس اليوم لا تزال عائلات كثيرة تحمل أسماء تنتسب إلى البلاد التي جاءت منها مثل عائلات التونسي والجزائري والمصري والعراقي واليمني. وكان من أثر نجاح الجامعة أن أصبحت منارة العلم في العالم الإسلامي، واشتهرت مدينة فاس حتى أصبح المثل يقول: "يكاد العلم ينفجر من حيطان فاس".

ولقد سطرت هذه الجامعة العريقة صفحات مشرقة في تاريخ القرويين، فمنها انبعثت الانطلاقة الأولى سنة 1930 لمقاومة (الظهير البربري)، الذي أراد به المستعمر فصل البربر عن مسلمي المغرب. ومنها خرجت الحركات الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي، وكان خريجوها هم رواد الوطنية في المغرب. ولقد اهتم علماء القرويين بكل العلوم والفنون، كانوا يخصصون مجالسهم داخل المسجد للعلوم الإسلامية وعلوم اللغة، ويخصصون المدارس المحيطة بالجامع للرياضيات والطب والتاريخ والموسيقى، وبعض العلوم كانوا يدرسونها في بيوتهم كعادة بعض جامعات أوروبا الآن مثل جامعة (ليدن) في هولندا.

وقد ظلت هذه الجامعة منارة العلم التي تحدث الأحداث السياسية التي مرت بها، خصوصًا ضغط الاستعمار الفرنسي لطمس معالم العروبة والدين في المغرب، وبقيت كعبة طالبي العلم في الشرق والغرب، وجاءها (سلفستر) الثاني طالبًا العلم، ومنها نقل الأعداد العربية إلى أوروبا. وفي عام 1931 عين الملك محمد الخامس مجلسًا أعلى للأشراف على

جامعة القرويين، فقام بتطوير برامجها لتلائم روح العصر الحديث، فقسمت الدراسة فيها إلى ثلاثة أقسام يمنح الطالب في نهايتها شهادة العالمية، وفي عام 1957 أدخلت العلوم الحديثة كالتاريخ والجغرافيا والرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلسفة الإسلامية واللغات الأجنبية.

ويسمى نظامها الآن (التعليم الأصلي). ولعل أهم ما في هذا التغيير هو تعريب الدراسة كلها، مما جعل جامعة القرويين تحتفظ بمكانتها القديمة كمصدر لإشعاع الروح الإسلامية العربية.

وللقرويين دور فعال في تعليم المرأة، حيث كانت في البداية تتلقى علوم القرويين وهي في دارها، وتحضر بعض المحافل التي يعقد فيها الفقهاء مجالسهم، واستمر اتصال القرويين بالوسط النسوي حتى عصر النهضة الحديثة، حين نادى الملك محمد الخامس من فوق منبر القرويين بوجوب تعليم الفتاة كالفتى تمامًا، فقال: "لا رقي لشعب نصفه أشل"، ففتحت الجامعة أبوابها للنساء، وفي عام 1947 فتحت الجامعة معهدًا للفتيات.

وكانت الجامعة في بداية عهدها تعتمد على كتب الفقهاء الخاصة، كان الطلبة ينسخون منها دروسهم، ثم أنشأ السلطان أبو عنان فارس المريني مكتبة القرويين، وأودعها كثيرًا من الكتب تحتوي على (علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان).

ولقد نمت هذه المكتبة حتى أصبحت من أضخم المكتبات، فهي تضم أكثر من 10 آلاف مخطوط في جميع أنواع المعرفة، ففيها كتب في الرياضة والطب والفلك، والهندسة وعلم الجبر والحساب، وعلوم الفلسفة واللغة، ومن هذه المخطوطات ما كتبه أصحابها بخط يدهم ككتاب

(الأوقات) لمحمد بن كرمرت، الذي اختصر كتاب الموطأ، وكتاب (الطهارة) وهو مكتوب على رق الغزال، وكتاب (العبر) لابن خلدون مذيل بتوقيعه، وكتاب (سير ابن اسحاق) في القرن الخامس الهجري، وهي نسخة فريدة في العالم، وكتاب (الرجم والحدود) لعلي يوسف بن تاشفين، ومنظومة (الطب) لأبي بكر بن الطفيل، هذا فضلًا عن كتاب (سير إبراهيم بن الفزاري) على رق الغزال، وهو من أقدم مخطوطات المكتبة، ومخطوطة مرسومة بالبيان والتحصيل في الفقه المالكي للفقيه ابن رشد، قيل إنه استخدم في كتابته 360 غزالًا!

وبالمغرب جامعة دينية أخرى هي (جامعة ابن يوسف) بمدينة مراكش، تضم عدة آلاف من الطلبة والطالبات، وقد طورت مناهجها بعد الاستقلال لتقبل المرأة، فضلًا عن تعليم اللغات الأجنبية وباقي العلوم الحديثة.

من جامعة عليكرة تخرج علماء الشرق الأقصى:

دخل الإسلام الهند في القرن الثامن الميلادي على يد الفاتح العربي محمد بن القاسم، في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وفي القرن الثالث عشر قامت دولة المماليك على يد السلطان قطب الدين أيبك، وفي مستهل القرن السادس عشر قامت الدولة المغولية على يد ظهير الدين بابر، وفي بداية القرن الثامن عشر بدأت الامبراطورية المغولية تضمحل وتتفكك، فبدأ الاستعمار البريطاني يدخل الهند على يد (شركة الهند الشرقية)، وفي منتصف القرن التاسع عشر ثار الهنود على الشركة، فتم قمع الثورة، وحكم الاستعمار البريطاني بشكل سافر، وقاطع

السلملون المستعمر تمامًا حتى أصابهم التلف والجهل.

وبعد أن دالت دولة المسلمين في الهند، هو السيد أحمد خان، وأدرك الشيخ أن المقاطعة والسلبية لن تؤدي بالمسلمين إلا إلى مزيد من التلف، فنادى بتعليم المسلمين حتى يمكنهم أن يلحقوا بمجدهم القديم. وفي عام 1877 أنشأ كلية إسلامية في عليكرة تدرس العلوم الإسلامية بالإضافة إلى العلوم الحديثة. وتوفي السيد أحمد خان عام 1899، ولكنه خلف رجالًا مثل هالي، وغفر الملك، وشبلي ومحسن الملك، حملوا رسالته.

بعض هؤلاء الرجال مع آخرين أسسوا (المؤتمر الإسلامي) في مطلع القرن العشرين، وفي عام 1913 أصبح القائد الأعظم محمد علي جناح عضوًا في المؤتمر الإسلامي، وفي عام 1930 عقد المؤتمر الإسلامي في مدينة الله آباد برئاسة الشاعر محمد إقبال، وفي هذا المؤتمر نادى إقبال بدولة للمسلمين، وقام القائد الأعظم محمد علي جناح بالجهاد في سبيل الفكرة حتى ولدت جمهورية باكستان الإسلامية.

غير أن جامعة عليكرة الإسلامية بقيت في مقاطعة أوتار براديش بالهند، وذاع صيتها في جميع أنحاء العالم، بفضل اثنين من أبرز أساتذتها، هما البريطاني سير والتر رايلي، والعلامة شبلي النعماني، المؤرخ الهندي ومؤسس ندوة العلماء بمدينة لكناو، والذي كان له الفضل في رفعها إلى درجة جامعة، بعد نداء للاكتتاب تبناه زعيم طائفة الإسماعيلية الراحل أغاخان، وتم جمع أكثر من 30 مليون روبية لهذا الغرض.

وفي سنة 1920 تحولت الكلية الصغيرة إلى ما هو معروف الآن باسم (الجامعة الإسلامية بعليكرة)، أقدم الجامعات التي أسستها الأمة الإسلامية

في الهند، وأكثرها صيتا وشهرة، فقد أسهمت هذه الجامعة في تثقيف الشباب المسلم وصوغه في قالب جديد، ومعظم زعماء المسلمين في ماضي الهند القريب، وأغلب العلماء الذين برزوا في مختلف العلوم العصرية ونالوا شهرة دولية إما من خريجي هذه الجامعة، وإما ممن كانت لهم علاقة بها.

وقد أقيمت الجامعة على نمط جامعتي أكسفورد وكمبردج البريطانيتين، مع تعديل بسيط لتلائم الظروف والأوضاع الهندية. وفي عام 1925 احتفلت الجامعة بمرور نصف قرن على إنشائها، ودعي المسلمون إلى اكتتاب جديد لإقامة كلية للهندسة، وأقسام للطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان والنبات، بالإضافة إلى تعزيز قسم الجغرافيا. وفي عام 1944 أعيد تنظيم أقسام الجامعة بحيث تمارس مختلف الكليات نشاطها برئاسة مستقلة، ولتشجيع العلاج أنشأت الجامعة -بمعونة حكومة الولاية - معهدًا لتدريس الطب اليوناني والجراحة، وكانت الجامعة تحاول إقامة كلية للطب الحديث، فتحققت هذه الأمنية في عام 1962، وأصبح قسم الطب في الجامعة متكاملًا بمستشفياته وصيدلياته ومبانيه.

ولم تكن بالجامعة كلية خاصة للبنات، فتحولت مدرسة البنات الملحقة بالجامعة إلى كلية تؤهل لدرجات الليسانس، أما الماجستير والدكتوراه فتدرسها البنات في الجامعة مع زملائهن من الطلاب. وللطالبات مدينة جامعية منفصلة تسكنها الطالبات مراعاة لأصول الإسلام وتعاليمه ولوائح الجامعة، مع التزام الحجاب المشروع وعدم الاختلاط بالطلبة إلا في قاعات المحاضرات، وفي المناسبات الرسمية.

الفهرس

يحظى الأزهر (جامعا وجامعة) بمكانة كبيرة في التاريخ المصري الوسيط والمعاصر، وهي مكانة لم تتحقق لأي مؤسسة مصرية أخرى، فقد كان للجامع الأزهر دورا بارزا في قيادة الحركة الوطنية المصرية ضد الاستعمار، وكانت المظاهرات تخرج منه، وكان كذلك نبعا ثريا نهلت منه الثقافة فاكتسبت منه الكثير مما أثراها وأكد أصالتها وتميزها.

وإذا ذكر الأزهر ذكرت القاهرة، وعادت الذاكرة أكثر من ألف عام إلى الوراء، عندما دخل الفاطميون مصر، وبنوا القاهرة متخذين منها عاصمة لدولتهم الجديدة، وأنشأوا الجامع الأزهر ليكون رمزا لسيادتهم الروحية، ومنبرا لدعوتهم الدينية التي حاولت الدولة الجديدة ترويجها في مصر.

